أقدم النصوص المسيحية

نصوص متنوّعة

رسائل

غريغوريوس النيصّيّ

(٣٣٥- ٣٩٤؟)

غريغوريوس النيصيّ (٣٣٥ – ٣٩٤؟)

أولاً: حياتهُ

ليس في ما كتبه غريغوريوس وما كتبه معاصروه ومؤرخوه ما يُطلعنا بدقّة على مراحل حياته، وإنما هنالك إشارات وتلميحات نلتقطها في بحثنا، كما نلتقط ما توحي به المقارنات والمقاربات، وما لم يُفصح به غريغوريوس إفصاحاً تامَّاً. وقد عرفنا أنه من سُلالة كريمة أتينا على ذكرها في مدّمة ((حياة موسى)). وممّا لا شكّ فيه أن هنالك شخصين كان لهما أثر عميق في نفس غريغوريوس، وفي توجيه حياته، هما شقيقته ماكرينا، وشقيقه باسيليوس الذي كثيراً ما دعاه في مؤلفاته ((أباً ومعلماً)). وممّا لا شكّ فيه أيضاً أنه فقد أباه في حداثته وأن باسيليوس، أخاه البكر، قد تولّى أمره، ولكننا لا نعرف ما كان الفرق بينهما في السنّ، ولا هل تبع دروس أخيه عندما كان يُعلّم في قيصريّة كبّادوكيّة سنة ٣٥٦. والذي يبدو من آثاره أنه كان ضليعاً من أساليب البلاغة، وذا إلمام واسع بالفلسفة وبشتّى علوم عصره من مثل العلوم الطبيعية، والهيئة، والطبّ، مع أنّه لم يبلغنا أنه تردّد على مدارس قيصريّة والقسطنطينيّة وأثينا كأخيه باسيليوس وكصديقهما النَّزينزيّ.

وُلد غريغوريوس ما بين ٣٣٥و ٣٤٠ في قيصريّة كبّادوكية، وما إن شبّ حتى مال الى الخدمة الكنسيّة وصار شماساً قارئاً، وعبثاً حاول باسيليوس أن يشدّه الى أنّسي، فيكون له عوناً في حياة الجماعة الرُّهبانية؛ وعندما أُلغي يوليانس المدرسيّ سنة ٣٦٥ عاد غريغوريوس الى مهنة الكلمة البليغة، وفي بحثه عن ((البتوليّة)) أشار الى أنه أصبح غير مؤهّل لأن يشترك في ثمار التّبتُّل، وقد استدلوا بذلك على أنه تزوج، وقيل إنه اقترن بفتاة اسمها ثيوسابية ظلَّ وفياً لها سحابة حياته، وأنّها توفّيت سنة ٣٨٥ فوجّه إليه غريغوريوس النّزينزيّ رسالة تعزية.

عندما قّسِّم إقليم كبَّادوكية سنة ٣٧٢ عمد باسيليوس الى تدعيم جماعة النّيقويّين بزيادة الكراسي الأسقفيّة، وجنّد للدفاع عن العقيدة جماعة من ذوي العقول الثاقبة والإيمان الصُّلب، ودعا أخاه غريغوريوس الى أُسقفيّة نيصُّس، فقبل الدّعوة على مضض، إلاّ أن سِني أسقفيتّه السّبع الأولى كانت حافلة بالصّعوبات، وقد كتب إليه باسيليوس يأخذ عليه سذاجته في موضوع السياسة الكنسيّة والعلاقات العامّة (الرسالتان ٥٨ و ١٠٠) وعدُّهُ مفتقراً الى الخبرة؛ وهذا ما ألّب عليه الأريوسيّين فاتّهموه بتبذير أموال الكنيسة وبأن رسامته الأسقفيّة لم تكن شرعيّة، وفي مجمع دعا إليه حاكم البنطس أُسقِط من كرسيِّه ونُفي، ولبث في منفاه الى أن مات فالنس وضعت حدّة الأريوسيّة، فعاد الى كرسيِّه في آخر سنة ٣٧٨، واستقبل بكلّ حفاوة.

في سنة ٣٧٩ توفّي باسيليوس فكان على غريغوريوس أن يقوم بجميع مهام أخيه الرهبانية واللاهوتية والكنسية، فتألق نجمه، وانقلبت حاله من ضعفٍ الى قوةٍ، وظهر سياسياً كنسياً يُطلب لكلّ كبيرة وصغيرة، وخطيباً مُفوَّهاً، ولاهوتياً خبيراً حاذقاً في قضايا العصر العقائدي، وواعظاً مسموع الكلم، استطاع، الى آخر حياته، أن يقيم علاقات

وثيقة مع العاصمة، القسطنطينيّة، ومع البلاط الإمبراطوري. وقد اختير لتأبين الأميرة بولخاريا ثم الإمبراطورة فلاسيلاّ.

في مجمع أنطاكية (أيلول – تشرين الأوّل ٣٧٩) الذي اشترك فيه، عُهد إليه في أن يزور كنائس البنطس وأرمينية؛ وفي هذه الأثناء اختير متروبوليتً لسبسطية فاضُطّر أن يقيم في تلك المدينة ردحاً من الزمن الى ان انتدب لها أخاه بطرس أسقفاً أصيلاً. وفي مجمع القسطنطينيّة (أيار – تموز ٣٨١) لفت الأنظار بخطابه اللاهوتي العقائدي البليغ، وكان منذ ذلك الحين في عداد الأساقفة الذي يُعدُّون أركان الأرثوذكسية الصحيحة. وقد طلب إليه المجمع أن يتوجه الى بلاد العرب للتوفيق بين أسقفين يتنازعان كرسيّ بُصرى، ولمعالجة بعض البِدَع المتفشيّة هناك. وفي طريق عودته الى أبرشيّته توقف في أورشليم وزار الأماكن المقدّسة، وكان في نيصسُّ نحو أواخر سنة ٣٨١.

وفي سينودس القسطنطينية المُنعقد سنة ٣٨٣ ألقى خطابه الشهير عن ((ألوهة الابن والروح القدس)). وقد ورد اسمه في لائحة المشتركين في سينودس القسطنطينية ٣٩٤، وفي أواخر أيامه انقطع الى وضع القواعد الروحيّة للحياة الرُّهبانية التي نظّمها أخوه باسيليوس، وتوارى ظلّه الى أن توفي سنة ٣٩٤.

ثانياً: أعمالهُ

ل غريغوريوس النيصيّ آثارٌ كثيرة ومتنوعة ظهر فيها رجل ثقافةٍ فلسفيةٍ وعلميةٍ واسعة، ورجل عقلٍ متوهجٍ، فكان من ألمع اللاهوتيّين، كما كان من أسمى النفوس روحانيّةً، ومن أعمق الناظرين في الحياة الصُّوفيّة والنُّسكيّة، وقد يكون أثقب نظراً من باسيليوس ومن غريغوريوس النّزينزيّ في الحقلين الفلسفيّ واللاهوتيّ، وله الفضل الكبير في معالجة اللاهوت بنظرة فلسفيّة، كما كان له تقدير عظيم جداً في البلاط الإمبراطوري لبلاغته التي نهج فيها المنهج الذي شاع في السُّفسطائيّة الثانية، سُفسطائية هيماريوس وليبانيوس، وإن لم يتمشَّ ونفسيتهُ كخطيب.

لأفلاطون وأفلوطين والرواقيّين أثرٌ ملموس في كتابة غريغوريوس، وقد عمل على نقل الفلسفة القديمة من مستواها الوثني الى المستوى المسيحي. ومع أفلوطين الروحاني تمكن من وضع أُسُس التصوُّف المسيحيّ، وهكذا تنصّرت الفلسفة الإغريقيّة، واكتسبت امتداداً جديداً وروحاً جديدة، كما اكتسب التصّوف المسيحيّ عمقاً قامت على أساسه الحياة الرُّهبانيّة والنُّسكيّة في فورة انتشارها وأفق امتدادها.

وإنه لمن الصعب جداً تحديد تاريخ آثار غريغوريوس النيصيّ كما كان من الصعب اللحاق به في شتّى مراحل حياته، ولكن أكثر المؤرخين يرون أن معظم أثاره ظهر بعد وفاة باسيليوس (٣٧٩)، وهم يختلفون في نظرتهم الى أسلوبه الكتابيّ، فمنهم من ذهب الى أن أسلوبه ثقيل ومعقّد، ومنهم من رفعه الى أعلى مستوى ولمس فيه روعة الثقافة

القديمة في تناغم عباراتها وتساوق موسيقي ألفاظها. وعلى كلّ حال فغريغوريوس شاعر وفيلسوف وصوفيّ. وهو كما قيل ((شاعر أفكار)).

١. العمال العقائديّة

ء) ضدّ أفنوميوس أربعة كُتب فنّد فيها غريغوريوس آراء أفنوميوس، ففي الثلاثة الأولى دحض ما جاء في كتابه ((دفاعٌ أبعدُ من الدفاع)) ودافع عن باسيليوس وأسقط حججَ الأريوسيّة؛ وفي الرابع فنّد ما جاء في ((الاعتراف الإيمانيّ)) الذي قدّمه أفنوميوس ل ثيودوسيوس في مجمع القسطنطينيّة الذي عُقد سنة ٣٨٣.

ب) ثلاثة كتب **هاجم فيها الأبوليناريوسيّين**، وكرّر فيها أن ما لم يتّخذه الكلمة لم يفتده (يعني الطبيعة الإنسانية الكاملة).

ج) كتاب التعليم الكبير

من بعد ((مبادئ)) أوريجانس يُعدّ هذا الكتاب أوّل محاولة لاهوتيّة شموليّة. إنه خلاصة العقيدة المسيحيّة، ويُعتقد أنه ظهر نحو سنة ٣٨٦، اعتمد فيه غريغوريوس أيضاً على الماورائيّات، ولم يقتصر على مُعطيات الكتاب المقدّس؛ فقدّم ((للرؤساء الكنسيّين)) نموذجاً في بسط أهم العقائد المسيحيّة والدفاع عنها لدى الهراطقة واليهود والوثنيّين. فهذا البناء التّعليمي والدفاعيّ والقائم أيضاً على الحجّة العقليّة، لا يتقبّل نظريّات أوريجانس بطريقة عشوائيّة، وغن اعتمد عليها بعض الاعتماد. غنه ينحو نحواً واقعياً في موضوع قيامة الأجساد، متّبعاً في ذلك مثوديوس الشهيد خصم أوريجانس.

يعالج غريغوريوس في القسم الأول وحدانية الله في ثلاثة اقانيم؛ وفي القسم الثاني الخطيئة، والتجسّد، والفداء؛ وفي القسم الثالث المعموديّة الإفخارستيا.

د) الحوار مع ماكرينا

كانت ماكرينا على شفا الموت (حوالي كانون الأول ٣٧٩ أو في أوائل كانون الثاني ٣٨٠) وقد جعل غريغوريوس على لسانها آراءهُ في النّفس، والموت، والخلود، والقيامة. ....

وفي ما بقي من آثار غريغوريوس العقائدية نراه، في أربع رسائل، يدافع عن عقيدة الثالوث، ويبيّن العلاقة بين الأقانيم الثلاثة، وفي ان الثلاثة واحد في الجوهر. أمّا الرسالة ١٨٩ فهي منسوبة خطأ الى باسيليوس، وفيها يُظهر غريغوريوس الوهة الروح القدس. وهناك حوار مع فيلسوف وثنيّ ينقض فيه غريغوريوس مذهب الجبريّة الفلكيّة.

٢. الأعمال التفسيريّة والوعظيّة

ء) ل غريغوريوس مؤلّفان مهمّان في **تاريخ الخليقة: خلق الإنسان، وتفسير الأيّام الستّة** الدفاعيّ، وضع الأوّل منهما وقدّمه لأخيه بطرس بداعي الفصح، وأتمّ فيه **الأيّام الستّة** لباسيليوس، وقد نهج فيه، على غير عادته، نهج باسيليوس متقيّداً بالمعنى الحرفي، ومبتعداً عن التفسير المجازي والرّمزي الذي شاع في سائر أعماله التفسيريّة.

ب) ثماني مواعظ في **سفر الجامعة** يدعو فيها غريغوريوس النّفس الى التعالي فوق الحواسّ، والى الزُّهد بجمالِ الدّنيا، والى العبادة الصامتة للقدرة الإلهيّة في هيكل النفس؛ وخمس عشرة موعظة في **نشيد الأناشيد**؛ يرى فيها الواعظُ قصة اتحاد النفس بالله في زواج سرّيّ؛ وهو يُحلّق تحليقاً رائعَ البيان، بنفس يغمرها الحبُّ الإلهيّ، موضحاً انطلاق النفس النشوى بحبّ الله، في تصعيدها غير المحدود الى الله غاية وجودها. **وعدّة مواعظ في المزامير** يبيّن غريغوريوس أولاً هدفَ المزامير ونظامها، ثم يفسّرها تفسيراً رمزياً، والمزامير في نظره خمسةُ كُتب تُمثل الدرجات الخمسَ في سُلَّم الكمال، ولعناوينها معان روحيّة يبرزها في تقوى وورع. وخمس مواعظ في **الصلاة الربيّة**؛ وثماني مواعظ في **التّطويبات** يسعى غريغوريوس الى أن يكتشف فيها ثماني درجات في سلّم الكمال التي تقود الى المشاهدة السعيدة. أمّا الصلاة الربيّة فهو يُقدّم لها بكلام على ضرورة الصلاة، ثم يفسّر طلباتها تفسيراً اخلاقياً في غالب الأحيان؛ وموعظتان في **رسالة بولس الأولى الى الكورنثيين**. وغننا سنتوقّف عند أشهر عمل تفسيريّ لغريغوريوس هو حياة موسى.

ج) حياة موسى

* تاريخ وضع الكتاب

وضعَ غريغوريوس هذا الكتاب نحو سنة ٣٩٢ عن طلب أحد الرُّهبان، وكان قد تقدّم في السنّ، يدلُّ على ذلك شيبُ شعره الذي يشير إليه، والحسدُ الذي تعرَّض لسهامه وتحدّث عنه بمرارة، والصّراعات المسيحية التي نشبت في أواخر حياته وتركته وتركت أصداءً واسعةً في الكتاب، وهذا النّضج الكاملُ في التعليم الروحيّ الذي تسيطر عليه فكرة الكمال في كونه نمواً متواصلاً.

* مضمون الكتاب

في الكتاب قسمان، قسمٌ تناول فيه المؤلف خلاصةَ الأحداث التي رافقت حياة موسى مُستنداً فيها الى رواية سِفري الخروج والعدَد، وناهجاً نهجَ باسيليوس وفيلونَ اليهوديّ، أي مُعتمداً حرفيّةَ التاريخ في تفسيره، ورامياً أبداً الى استخراج المعاني الأخلاقية التي تفيد وتبني، وكأن حياةَ موسى سيرةُ أحد القدّيسين. وغريغوريوس يُضخِّم الأحداثَ بعض التّضخيم لإبراز الفائدة الأخلاقيّة، ويشدّد على الظّاهرات العجائبيّة من مثل العلّيقة المُلتهبة، ويُندّد بالتفسيرات الطبيعيّة التي تُقصي الجانب الخارق، كتفسير تكاثُر الضفادع بالتكاثر الطبيعيّ لا بأمر من موسى؛ ويُسقط الجزئيّات الشائنة أو يُضمّنها معاني لائقة، كاستيلاءِ العبرانيّينَ على أموال المصريّين. وهكذا فالقسمُ الأوّل من الكتاب تفسيرٌ حرفيّ يحمل على التقوى.

امّا القسم الثان ففيه جوهرُ الكتاب حيث تصبح حياةُ موسى صورةً للترقّي في مَدارج الكمال، ومثالاً للنفس في مسيرتها الصّوفيّة. وقد نهج غريغوريوس في هذا القسم نهجَ فيلون في التفسير الروحيّ، وأضاف الى طريقة فيلون طريقة التفسير الرمزي لسفر الخروج كما نرى بعضاً من ذلك في العهد الجديد ولا سيّما رسائل القدّيس بولس؛ فأحداث سفر الخروج فيها لم تُعد صوراً لحقائق روحيّة وحسبُ، ولكنها تصبح صوراً لحقيقةٍ تاريخيةٍ وروحية هي المسيح والنظام الجديد الذي أقامه. وهكذا فأهمّ الأحداث في سفر الخروج مذكورة في الإنجيل ومطبّقة على المسيح، من مثل الحيّة النُّحاسيّة، والمنّ، والحمل الفِصحيّ، والعمود النيّر؛ وهذه الطريقة الرمزيّة فاشية في كتابة بولس، والأمثلة كثيرةٌ نَقتصر منها على قوله: ((لا أريد ان تجهلوا، أيّها الإخوة، أن آباءكم كُلّهم كانوا تحت الغمام وكلَّهم أكلوا الطعام الروحيّ نفسه، وكلَّهم اعتمدوا موسى في الغمام وفي البحر، وكلَّهم أكلوا الطعام الروحيّ نفسه، وكلَّهم شربوا الشراب الروحيّ نفسه؛ فإنهم كانوا يشربون من صخرة روحيّة تتبعُهم، وهذه الصخرة كانت المسيح ... ولقد جرت هذه المورُ ليكون لنا فيها عِبرةٌ)) (١ كور ١٠: ١ – ٦).

وممّا لا شكّ فيه أن أوريجانُس سبق غريغوريوس الى هذا النوع من التفسير، ولكن غريغوريوس لم يُغرق في التفصيل والتأويل كما فعل سابقوهُ، فاكتفى بالبارز من الأحداث، وجعله سلّماً الى قمّة الكمال.

* الكمال المنشود في الكتاب

موضوع الكتاب هو الكمال عن طريق الفضيلة، وفيما يرى قُدامى اليونان ان الكمال هو في ان يبلغ الشيءُ تمامهُ، يرى غريغوريوس أن الفضيلة سيرٌ الى المام، وأن الكمال من ثمَّ نموٌّ دائم وتطُّور متواصل؛ وموسى يُجسّد هذه الفكرة في حياته التي كانت مَسيرة الى أرض الميعاد، وهكذا فالكمال حركةٌ دائمةٌ نحو اللامحدود واللامُتناهي، حركة ((تنسىَ ما وراءها وتمتدّ الى ما أمامها)) (فيل ٣: ١٣)، حركةُ إنسان يجدُّ الى المجهول ويتفوّق أبداً على ذاته. ذلك هو الابتكار الرائع الذي تفرَّد به غريغوريوس. لقد تصوَّرَ فيلون وأور يجانس الحياة الروحيّة مراحل متعاقبة، ولكنهما لم يجعلا من الفضيلة حركة تجتاز هذه المراحل المتعاقبة.

ويرى أفلوطين أن الحياة الروحيّة تقومُ بإعادة النفس الى طبيعتها الحقيقيّة، وبتطهيرها من كلّ ما تحمله من العناصر الغريبة، وهذا ما يذهبُ إليه غريغوريوس أيضاً، ولكنه يرى أن طبيعة النفس الحقيقية هي في كونها صورة الله، وأن الحياة الروحية تقومُ بجلاء هذه الصورة، وبتحوّل النفس تحوّلاً مُتواصلاً الى الله؛ والصورة يجب ان تشبه صاحبها وأن تختلف عنه: فالروح المخلوقُ يُشبه الله في كونه ((لا حدَّ له))، ويختلف عنه في كونه حركةً لا محدودة؛ وهكذا فجوهر النّفس هو ((اشتراك)) في الله دائمُ النموّ، وأبداً غير مُنتهٍ. وقد ترفض الحريّة هذه الحركة الناميّة، فيكون من ذلك الشرّ، والتنكرُّ لطبيعتها؛ وقد تسيرُ في تيّارها فتكون الفضيلةُ وتحقيقُ الإنسان لجوهره الحقيقيّ.

ولكن أيُّ الحركات توجهُ الإنسانَ الى الله وتجعله يتمثل بالله؟ فالله غيرُ متحرّك وغيرُ قابل التحوّل، والنفس في جوهرها حركةٌ؛ فكيف يتمُّ التمثّل بين الحركة واللاحركة؟ والحلّ عند غريغوريوس في أن النمّو حركة، وفي أنّه ديمومة في الحركة؛ وفي هذه الدّيمومة استقرارٌ هو تمثّل بالله.

من ذلك كلّه نرى أن التّصعيد نحو الله هو حالة ثابتة، أي هو تفوق على الذات لا ينقطع في تجردات متعاقبة تستمطرُ نعماً جديدة لمراحل جديدة، وقد تشقُّ هذه التجرّدات على النفس، وهي تحسبُ أبداً انها بلغت الغاية، حتى إذا انفتحت بالتجرُّد الكامل على الله تستسلم لهُ استسلاماً كاملاً، وتُصبحُ، في تخلّيها عن كلّ هوىً، فانية في الحب الصّافي.

كلُّ قياس في الكم تتبعُهُ بعضُ الحدود الخاصّة؛ ومَن ينظُر الى الذّراع أو الى العدد عشرة يَعلم تمام العِلم أنّ الكمال فيهما يقوم بأنهما يبتدئان عند حدٍّ ما، وينتهيان عند آخر. أمّا في موضوع الفضيلة فقد أخذنا عن الرسول نفسه أن ليس لكمالنا سوى حدٍّ واحد هو أن لا يكونَ له حدّ؛ فهذا الرّجل الواسعُ والثاقب العقل، هذا الرّسولُ الإلهيّ، لم يتوقّف قطُّ، في سبيل سَعيه الى الفضيلة، عن الامتداد الى ما هو أمامه؛ فلم يكن عنده التوقّف عن السّعي موطن أمان؛ لماذا؟ لأن كُلّ خير في ذات طبيعته غيرُ محدود، لكنه يَجد حداً له في ضدّه، وهكذا فالحياة في الموت، والنورُ في الظلمة؛ وهكذا فكلّ خير يتوقّف عند الحقائق المُضادة له. فكما أن نهاية الحياة هي بداية الموت، كذلك التوقّف

عن السّعي في طريق الفضيلة هو بداية السّعي في طريقة الرذيلة. وهكذا فلم يكن في كلامنا ضلالٌ عندما قلنا إن الكمال في موضوع الفضيلة لا يمكن أن يُوضع له حدّ. وقد أوضحنا أن ما ينحصر ضمنّ حدود لا يكون من الفضيلة **(حياة موسى)**.

* غريغوريوس والعلوم القديمة في كتابه

يقف غريغوريوس من العلوم الدنيوية موقفين مختلفين، فهو من جهةٍ يحرض على اكتسابها واستخدامها في أمور الدين، وهو من جهةٍ أخرى يحذّر من أخطارها؛ وقد أكبّ هو على اكتساب ما استطاع منها، وعلى التعمّق في أساليبها، وقد ظهر أثرُها في كتابه، فنحا نحو المدرسة السُّفسطائيّة الثانية، واتبع نظامها في التأليف، فانجرَّ الى معالجات جانبيّة كثيرة، والى قياسات جدليّة مُتسلسلة، والى اوصافٍ واستطرادات تستهوي السُّفسطائيّن، والى وجوهٍ كثيرة من المجاز والطباق والجناس وما الى ذلك من ضروب البيان والبديع التي كانوا يرصّعون بها كتاباتهم كما في قوله: ((ظلمةٌ نيّرة))، و((الصعود الى أسفل))، و((حركة ثابتة)).

وفي الحقل الفلسفي كان لأفلاطون التأثير الأوسع في ((حياة موسى))، فقد جاراه غريغوريوس في النظر الى وهميّة العالم الماديّ والتحرُّق الى العودة، وفي تحليق النفوس المجنّحة الى الأعالي، متفوقة على ذاتها، ومتنقلة من قمة الى قمة أعلى، في سبيل الأسمى.

فصورة النفس الخفيفة، التي تمتدُّ بطبيعتها الى الخير الجذّاب، منتشرة في آثار أفلاطون وأفلوطين. ومن الآراء الأفلاطونية فكرةُ العودة الى الكينونة بالتعرّي من الظاهرات الحسيّة، ومرادَفةُ الكينونة للخير، وسلبيّة الشرّ، ومقارنة الشرّ بتمنّع العين عن رؤية النور، وتقسيمُ النَّفس الى عقليّة وشهوانيّة وغضبيّة، وتشبيهُها بعربةٍ يجرُّها حصانان ويقودها العقل... وقد اختلف العلماءُ في موضوع المدرسة الفلسفية التي ينتمي إليها غريغوريوس وكان أرجحُ الآراء أن مذهبه هو صورةٌ أفلاطونية خاصّة، مستقلّة عن الأفلاطونيّة الحديثة، تجمعُ عناصرَ أفلاطونيّة الى عناصر أرسطو طاليسيّة ورواقيّة.

٣. الأعمال النُّسكيّة والرُّهبانية

ء) في التبتُّل: هذا البحث من أعمال غريغوريوس الأولى، كتبه بُعيد رسامة باسيليوس الأسقفية (٣٧٠) وقبل أن يُدعى هو الى الأسقفية؛ وهو شهادة على التجديد الذي قام به باسيليوس. يبرزُ غريغوريوس في بحثه هذا الفكرة التي يقوم عليها مذهبُه اللاهوتيّ الصُّوفيّ، أي خلقَ الإنسان على صورة الله؛ وهو يجدُ في التأمُّل والمشاهدة ما يُطهّر ويرفعُ الى ما فوق الحسيّات، إذ إن الله فوق التصوّرات البشريّة.

ب) في الكمال المسيحيّ: بحث موجّه الى الراهب أولمبيوس، وهو تعليق على نصوص القدّيس بولس المسيحانيّة. فالقداسة هي عمل المسيح في النفس. وخاتمة هذا البحث هي التالية:

الكمال الحقيقيّ لا يتحقق أبداً، ولكنّه حركة دائمة الى الأصلح. الكمال لا يحدّه حدّ.

ج) اسم المسيحيّين ووظيفتهم: بحث موجّه الى مُراسل اسمه هرمونيوس، وخلاصته أن المسيحيّة اقتداء بالطبيعة الإلهية، وتجديد للصورة الأولى.

د) حياة ماكرينا: كُتبت هذه السّيرة عقبَ وفاة القدّيسة (كانون الأول ٣٧٩)، التي كانت نموذجاً للكمال المسيحيّ.

هـ) المؤسّسة المسيحية: هذا المؤلَّف المهمّ لم يُكتشَف كاملاً غلاَ في الأيّام الأخيرة، وهو ممّا كتبه غريغوريوس في أواخر حياته، أي بعد سنة ٣٩٠، وينطوي على هيكلية شاملة لآراء غريغوريوس الرئيسيّة، وعلى كلمته الأخيرة في طبيعة النُّسك، ومقاطع من كتابيه في التبتّل وفي حياة موسى. وإذ كتبه الى الذين ((يحققّون معاً صيغة الحياة الرسوليّة)) فقد حاول أن يستخلص هدفَ الحياة الرُّهبانية والوسائل التي تُصِل إليه. وهدف الحياة الرُّهبانية هو أن يرتقي بالإنسان الرّوحاني الى مرحلة البلوغ، وهذا النمّو هو عمل تشترك فيه النعمةُ والحريّة. الإيمان والمعموديّة جعلا الإنسان روحانياً، وكانا في أصل تطهير مُتنامٍ حرّر النفس من الانطواء، ونقلها الى الثقة والثبات بحيث أصبحت مؤهلة لرؤية النور الغير المُدرك. التواضع وحده يجعلها شبيهة بالمسيح.

في القسم الثاني من الكتاب تشديد على ممارسة الحياة المشتركة، حيث يصبح كلّ واحد، بكفره بذاته وبكلّ إرادة ذاتيّة، في خدمة الجميع. النُّسك هو نظام خدمة متبادَلة، في الفرح وتألُّق المحبّة؛ والطريق تصبح واضحة.

عندما تتَّخذ الجمعيّة دليلاً مَن أُلقِيت إليه مهمّة قيادة الإخوان الى ميناء الإرادة الإلهيّة (٩٧).

في القسم الثالث دفاع شديد عن حياة التأمل، وهذا من ذاتيّات غريغوريوس الأسدَّ بروزاً؛ فالصلاة سُلّم الفضائل.

من يُكبَّ على الصلاة، بقيادة الروح وعونه، يضطرم بحبّ الربّ وبالرغبة في مناجاته، لا يجد ما يروي ظمأه الى الصلاة، بل تزداد أبداً رغبته في تطلّب الصلاح الإلهيّ (٧٨).

٣. الخُطب والمواعظ والرسائل

الخُطب والمواعظ هي العمال الأقل قيمة في تراث غريغوريوس النيصيّ، وهي دون خُطب ومواعظ الكبّادوكيّين الآخرين، ف غريغوريوس لا يملك نظرة باسيليوس الواقعيّة، لا عفويّة النَّزينزيّ وخياله، وأساليب السفسطائيّة الثانية التي يعتمدها لا تنقاد له كما انقادت لهما، بل تبدو عنده خالية من الروح ومن التأثير.

وقد عالج في خطبه ومواعظه قضايا لاهوتيّة وأخلاقيّة، من مثل لاهوت الابن والروح القدس، وتجاوزات مُرجئي المعموديّة، ومعاندي كلمة الله، وذوي الأطماع.... ول غريغوريوس خُطبَ ومواعظ مناسبات كتلك التي كان يلقيها بداعي الأعياد الكنسيّة (الميلاد، والفصح، والظهور، وأعياد القدّيسين...) وهو أوّل من وعظ بداعي عيد الصعود، فكانت عظته فيه الشهادة الأولى على انفصال ذلك العيد عن عيد العنصرة (أيّار ٣٨٨).

أمّا رسائل غريغوريوس فلم يصل إلينا منها إلاّ ثلاثون أشهرها الثانية والثالثة اللتان عرض فيهما لموضوع الحجّ الى القدس، وشجب فيهما الغلّو في تعظيم ذلك الحجّ.

ثالثاً: فكرة غريغوريوس الفلسفيّة واللاهوتيّة

لقد اصطبغت فلسفة غريغوريوس بالصبغة الأفلاطونيّة (الأفلاطونيّة المتوّسطة والأفلاطونيّة الحديثة الناشئة) التي تظهر بوضوح في حواره مع أخته ماكرينا في موضوع الروح والقيامة، وعلى خطّة أفلاطون في حوار فيدون. والذي تمتاز به أفلاطونيّة غريغوريوس هو أنها مطبّقة تطبيقاً توفيقياً على الفكرة المسيحيّة وهذا ما يميّز غريغوريوس النيصيّ عن زميليه الكبّادوكيّين الكبيرين وما جعله، في نظر الباحثين، المفكر العميق الفلسفة.

وهو فيي لاهوتيته يستند كزميليه على التقليد الاسكندري الذي عُرف به فيلون وأوريجانس؛ وكثيراً ما يذكر أوريجانس، وقد أخذ عنه فكرة الإصلاح، في آخر الأزمان.

وامّا اللاهوت النُّسكي والصّوفي فقائم عن غريغوريوس على كلمة بولس ((أنسى ما ورائي وامتدّ الى ما امامي)) (فيل ٣:١٣)؛ فالكمال عنده التصعيد المتواصل نحو الله، كما فصّلنا ذلك في دراستنا لِـ((حياة موسى)).

غريغوريوس النيّصي هو، بعد أوريجانس، صاحب العرض الهيكليّ المنظّم للعقيدة المسيحيّة. إنه ينطلق من الكتاب المقدّس ((معياراً للحقيقة)) (ضد أفنوميوس ١:١٠٧) و ((دليلاً للعقل) (١: ١١٤، ١٢٦)، ويجعل محلاً واسعاً في لاهوته للفلسفة والعقل في غير إغفال لما يقدّمه التقليد من مُعطيات.

لا يحقُّ لنا أن نُثبت ما نريد. إنّنا نجعلُ الكتاب المقدّس معياراً ومقياساً لجميع عقائدنا؛ ولا نوافق غلاّ على ما يتّفقُ ومضمون هذا الكتاب (النفس والقيامة).

إذا عجز تفكيرنا عن احتواء هذه المسألة، يجب علينا أن نتشبث بالتقليد الذي ورثناه عن سلسلة الآباء (لا يوجد ثلاثة آلهة).

١. معرفة الله

على أثر فيلون وأفلوطين يرى غريغوريوس أنّ معرفة الله ليست معرفة طبيعيّة فقط، تنطلق من الأشياء الحسيّة الى الأشياء فوق – الحسيّة؛ ولكنه يجعل قمّة معرفة الله في تعالي النفس البشريّة الى مشاهدة تأمليّة لله مباشرة، الى تمتُّع مُسبق بسعادة السماء، الى ((نشوة إلهيّة وعقليّة)) (التطويبات ٦). وإن ما عنده من لمحات أساسيّة ((للاهوت سلبيّ)) ومذهبه في موضوع الاسم الإلهيّ، وتصوّره للانخطاف كلّ ذلك جعل منه سابقاً لذيونيسوس الأريوباغي، ومُلهماً لمكسيموس المعترف.

٢. عقيدة الثالوث

الثالوث ثلاثة أقانيم في جوهر واحد، وتمييز أحدهم عن الآخر هو تمييز علاقة لا تمييز جوهر؛ وكلّ عمل إلهي الى الخارج هو عمل الأقانيم الثلاثة، أمّا العلاقات المتبادلة في الداخل فهي كما يلي: ((هنالك المبدأ وما يصدر عن هذا المبدأ؛ وفي ما يصدر عن المبدأ ما يصدر مباشرة، وما يصدر بوساطة الصادر مباشرةً عن المبدأ)). فغريغوريوس كسائر الآباء اليونانيّين يُعلن أن الروح القدس ينبثق من الآب بالابن، ومع ذلك فالروح القدس مع الآب علاقته الطبيعيّة. وفي المقال ((ضدّ المقدونيّين)) يشبّه غريغوريوس الثالوث بثلاثة مشاعل، يُشعل الأوّلُ منها الثاني، ويشعل الثالث بوساطة الثاني؛ وفي عظته التفسيريّة عن ((الصلاة الربيّة)) يوضح ((ان الروح القدس من الآب، وأنه أيضاً من الابن، وان هذا الروح الذي هو الله هو ايضاً روح المسيح)). وهكذا كان كلامه على العلاقة التي بين الروح والابن أشدّ وضوحاً من كلام الكبّادوكيّين الآخرين.

٣. المسيحانيّة

الإنسان في حركة دائمة، تشدّه رغبةٌ لا حدود لها هدفها الله، الجمال اللامتناهي الذي يزيد بعداً كلّما اقتربت النفس منه. إنه غيرُ المدرك، وهو مع ذلك محطّ الرغبة البشريّة التي لن تجد السعادة إلا فيه. والإنسان، بعد عثرة أبويهِ الأوّلين، ثقُلت خُطاه، ((وتهاوى رملُ الكثيب تحت قدَميهِ كلّما حاول التصعيد فيه))، فكان لا بُدّ له من عونٍ سماويّ ينتشله من عثرته ويعيد إليه النعمة المبّررة، وهكذا كان التجسّد الذي جدّد خليقته المُحرجة، إذ أرسل الله ابنه، وسكب الرحمة في الطبيعة المتعثّرة، وفتح قلبها لمحبّة الله.

وغريغوريوس يعلّم بوضوح أن في المسيح طبيعتين كاملتين غيرَ ممتزجتين، طبيعة إلهيّة كاملة، وطبيعة إنسانيّة كاملة في شخص واحد يجمع ميزات كلّ من الطبيعتين؛ وأن اللوغس تكوّن في حشا العذراء ((كما في غناء إلهيّ لم

تصنع يد بشريّة))؛ والعذراء من ثمّ ((ثيوتوكُس)) لا ((أنثروبوتوكس)) كما ادّعى المتحذلقون؛ وهكذا وجدت المرأةُ في المرأة مَن يدافع عنها وينقذها.

٤. الأسخطولوجيا (الأزمنة الأخيرة)

وإن رفض غريغوريوس رأي أوريجانس في أنّ وجود النفوس سابق لوجود أجسادها، فإنّه يوافقه على أن عذاب جهنّم وقتيّ، ويرى معه في الإصلاح العامّ، في آخر الزمان الخاتمة الرائعة لتاريخ الخلاص، إذ يخلُصُ الجميع حتى الشياطين (وهكذا ليس تعليم الكنيسة).

٥. الإفخارستيا

((نحن على ثقة الآن أن الخبز، حالما يتقدّس بكلمة الله، يتحول الى جسد)). ((تلك هي الموهبة (عدم الفساد) التي يمنحها بتحويل طبيعة الشكال الى هذا)) (الجسد غير المائت). (التعليم الكبير ٣٧:٣، ١٢).

خاتمة: غريغوريوس فيلسوف وشاعر ومتصوّف

غريغوريوس النيّصيّ مفكر صوفيّ يمكن النّظر إليه من نواحي مختلفة لأنه في آنٍ واحد فيلسوف، ولاهوتيّ، وشاعر، ومتصوّف؛ ولكن ما يميّزه عن غيره بنوع خاص هو عبقرياته البنّاءة. وروحانيتّه أبداً ذات توجّه عقائدي وارتكاز مسيحاني وسرّي. اما شعره فدون شعر النَّزينزيّ، وخالٍ من الروح العفوية، وأمّا أسلوبه الكتابي فيعقّده بعض التعقيد غوصهُ على المعاني البعيدة الغوار والواسعة الافاق.

غريغوريوس أعمق فيلسوف يونانيّ في العهد المسيحيّ. وعملُهُ الصّوفي صدى لخبرة شخصيّة، وهو في الحقيقة مؤسّس اللاهوت الصُّوفي. لا شك أنه تأثّر بأوريجانس ولكنّه عرف أن يكون ذاتياً، وان يصبغ صوفيّته بروحانيّة سامية قائمة على التأمّل بأسرار الله وحكمته اللامحدودة.

لم يكن غريغوريوس إدارياً كأخيه باسيليوس، ولم يجاره في العمل، ولكنّه وضع له في موضوع العفّة والتبتّل خطّة الحياة الرهبانيّة، وكان بذلك مرشد الرهبان الروحيّ؛ وبعد موت باسيليوس حرص على إتمام عمل أخيه سواء كان ذلك من الناحية اللاهوتيّة ام من الناحية الروحيّة، وقدّم للحياة الرُّهبانيّة نظامها الأمثل.

غريغوريوس النيصي ورسائله

١ – ليس لرسائل غريغوريوس النيّصيّ من الأهمية ما لرسائل باسيليوس والنّزينزيّ، وهي ثماني وعشرون رسالة أُضيف إليها رسالتان وُجهّتا إليه، إحداهما للسُّفسطائيّ ستاجيريوس والأُخرى لشقيقه بطرس. وهذه الرسائل تختلف اختلافاً شديداً في الطول والموضوع، فإلى جانب الرسائل القصيرة التي تسير على أسلوب الترسُّل العاديّ نجد أربع رسائل طويلة (١، ٣، ١٧، ١٩) هي بواقع أربعة أبحاث دفاعيّة، أو تفسيريّة، أو لاهوتيّة، أو روحيّة. يبدو أنّ غريغوريوس جمعها قبل نشرها وأعاد النظر فيها وصوغها صياغةً بلاغيّة نلمس فيها التعمُّل والصّناعة البيانيّة والبلاغيّة.

٢ – كتب غريغوريوس رسائله في عهد أُسقفيتهِ، وقد تكون جميعها عاقبةً لوفاة باسيليوس، أي بعد ٣٨٠، وقد يكون غريغوريوس قد اختارها اختياراً فكانت ثمرة نحو عشر سنين من الاتّصالات المختلفة الهداف. في الرسالة ٦ إشارة الى دعوته من المنفى بعد غياب طويل أي في خريف ٣٧٧ وقد استقبله شعبه استقبال الظافر وواكبوه الى كرسيّه بالتهليل ودموع الفرح. وأننا لا نجد في الرسائل إشارة الى مجمع أنطاكية الذي عُقد سنة ٣٧٨، ولكنّنا نرى الرسالة ١٣ انّه تعرّف برجل البلاغة الشهير ليبانيوس. ويبدو ان هذا المجمع الأنطاكي عهدَ الى غريغوريوس في معالجة قضيّة بعض الجماعات مع الأرثوذكسيين الشرقيّين (الرسالة ٥)، كما افده المجمع المنعقد سنة ٣٨١ الى البلاد العربيّة؛ وما إن اختُتم المجمع حتى توجّه غريغوريوس الى البنطس وقد بلغه خبر مرض أخته ماكرينا فتوجَّه إليها لحضور ساعاتها الخيرة، وبعد ذلك انتقل الى نيصّص يُعالج بِدَع الغلاطيّين الذين أشاعوا الفوضى العقائدية في المنطقة.

بعدما استقامت الحال لـ غريغوريوس في نيصّص دُعي الى إيبورا لاختيار أسقف لها بعد وفاة راعيها أراكسيوس، ثم الى سيبسطية للغاية نفسها، وقد عبّر في الرسائل ١٨ و١٩ و٢٢ وغيرها عن شكواه الشديدة ممّا لاقاه في هذه المدينة، واتّهم أهلها بالخبث والمخادعة. وفي الرسالة ٢٢ يشير الى مجمع أساقفة من شأنه أن يُنقذه من هذه الشدّة، وما إن عاد الى نيصّص حتى أكبّ على وضع اللمسات الأخيرة على كتابيه الأول والثاني من تسفيه أفنوميوس (الرسالة ٢٩) بين صخب الصّاخبين النّاقمين على أفنوميوس وأتباعه، وتشجيع المشجّعين على الردّ في غير إبطاء.

أغفلت الرسائل موقف غريغوريوس في مجمع ٣٨١ حيث كان له الدور الكبير وكلمة الفصل، وكان هو وهلاّذيوس أسقف قيصريّة وصديقه أُترايوس أسقف مليتينُس (صاحبا الرسالتين ١٠ و١٨) على قائمة الأساقفة الذين ينبغي أن تقوم معهم الشراكة الأرثوذكسيّة؛ وقد وردت إشارة الى ذلك في الرسالة الأولى، كما انطلقت فيها شرارة سخط غريغوريوس على هلاّذيوس الذي لم يُحسن استقباله.

ليس في الرسائل ما يوضح نوع العمل الذي قام به غريغوريوس في البلاد العربيّة عندما أُفد إليها؛ أما سفره الى أورشليم فقد ورد ذكره في الرسالة الثانية كما ورد أن ذلك السفر كان عن طلب من رؤساء الكنائس المقدّسة في اورشليم. ويبدو أن غريغوريوس لم يحصد من تلك الرحلة إلاّ ما أُتيح له من زيارة الماكن المقدّسة. أمّا خلافه مع هلاّذيوس أسقف قيصريّة فناشئ عن أمور عدّة أهمّها تدخُّل غريغوريوس أسقف المدينة الصغيرة في شؤون المنطقة وعاصمتها قيصريّة، فقد أغضب ذلك هلاّذيوس وكان ما كان. وفي ما يتعلّق باختيار أسقف لـنيقوميديا فقد فصَّل غريغوريوس في الرسالة ١٧ نظريتّه في الأُسقفيّة وما يجب أن يتحلّى به الأُسقف من صفات، وقد تدخّل في الأمر لكونه مُكلَّفاً بالرقابة الأرثوذكسية في المنطقة، ولكون المرشّحين لهذا المنصب من المدينة هم عدّة؛ قد يكون غريغوريوس مؤيداً لهذا ورافضاً لذاك من غير أن يصرّح بذلك في رسالته، وميله ظاهر في النعوت التي يريدها للأسقف، وقد آل الأمر الى اختيار جيرونتيوس مرشّح هلاّذيوس، ودلّ ذلك على عدم تحلّي غريغوريوس بالدّهاء الاكليريكي وإن تحلّى بأعظم الصفات الرُّوحيّة.

بين الرسائل الأخرى الواضحة الأهداف نتوقّف عند الرسالة ٢٥ التي وصف فيها غريغوريوس هندسة بناء المرتيريوم في نيصّص، وصفاً دقيقاً كما اهتم للبناء والبنائين بأسلوب المهندس الذي لا تفوته شاردة ولا واردة.

الذي يقرأ هذه الرسائل يلمس عبقريّة الكاتب البلاغية واللاهوتيّة، ويلمس الأفق الثقافي الواسع الذي يجول فيه جامعاً ما بين الحضارة الفكريّة الهلينيّة والحضارة الفلسفيّة واللاهوتيّة المسيحيّة.

الرسالة الأولى

إلى الأسقف فلافيانس

إنّ أمورنا، يا رجل الله، لا تسير سيراً حسناً: فالضغينة التي تشتدُّ عند من بعثوا علينا هذا الحقد الجائر الذي لا يُفسَّر، لم تعد شُبهةً قائمةً على ظنٍّ او تخمين، ولكنّها تعملُ بصورةٍ سافرة، وكأنها عملٌ صالح. وأنت الذي لا تزال بمعزل عن هذا الشرّ لا تهتمّ لإخماد هذه النار التي تلتهم بلهيبها كلّ ما جاورها، كما لو كنتَ تجهلُ ان من يحرصون على صيانة صوالحهم يقاومون، بكل ما لديهم من طاقة، الحرائق التي تنال جيرانهم، حتى لا يفقدوا العون إذا نالهم المرُ نفسه. ماذا أعني بقولي هذا؟ لقد غادرتِ التقوى هذا العالم، لقد ابتعدت الحقيقة. أمّا السلام فكان لنا منه قبلاً الاسم يتردّد على شفاهنا؛ والآن غاب السلام وغال اسمُه أيضاً. ولكي تكون على علمٍ أوضح بسبب شكواي سأعرض لك المأساة بوجيز الكلام.

هنا أناسٌ نقلوا إلينا أنَّ هِلاَّذيوس الجزيل الاحترام يُسيء النَّظر فينا، ويروي للجميع أني كنتُ له سببَ أسواءٍ كثيرة وشديدة. ما كنتُ أُصدق ما يُنقل إليَّ وأنا أَتقصّى ما انا عليه وحقيقة ما كان يجري. وإذ كان الجميع، وبالصوت الواحد، ينقلون إليّ المر نفسه، وإذ كانت الحداث تتّفق وهذه الشّائعات، رأيتُ من الملائم أن لا أدع هذه الحدّة الغوغائيّة بلا علاج. ولهذا توجّهتُ بهذه الرّسالة الى تقواك، ثم إنّي حملتُ الكثيرين من ذوي الإلمام بهذه القضيّة على أن يُولوها اهتمامهم، وغليك آخرَ الأحداث. كنتُ قد احتفلتُ بعيد الطوباويّ بطرس عندما كان سكّان سيبسطية يقيمون ذكراه للمرّة الأولى في مدينتهم، وقد اشتركتُ معهم في العياد التي درجوا على الاحتفال بها في تلك الفترة تكريماً للشهداء، وكنتُ في طريق العودة الى كنيستي؛ وقد لفتَ نظري أحدُهم الى انه موجودٌ في منطقة جبليّة مُجاورة، للاحتفال بأعياد شهداء، فقرّرتُ أولاً أن أواصل مسيرتي رائياً من الأفضل أن تجري المقابلة في العاصمة؛ ولكن عندما سارع إليَّ أحدُ الأصدقاء وأخبرني أنه مريض، تركتُ عربتي في مكانها، في المكان الذي جاءني فيه الخبر، وامتطيتُ جواداً لاجتياز المسافة التي كانت تفصلهُ عنّي، مسافة وعرة، صعبة المسالك، شديدة الانحدار. خمسة عشر ميلاً، على حدّ ما قال أبناء المنطقة، كانت تفصلنا عنه. بعدما اجتزناها بكبير مشقّة، تارةً راجلاً، وتارةً على جواد، وصلتُ صباحاً، في الساعة الأولى من النهار – وكنتُ قد قطعتُ قسماً من المسافة ليلاً – الى أنذيمونا – وهو اسم المكان، الذي كان يرأس فيه اجتماعاً مع أسقفين آخرين. لمحنا من بعيد، من مكان مرتفع يُشرف على القرية، المجلس مجتمعاً في الهواء الطَّلق. اجتزنا المسافة الباقية على مهل، متقدّمين مشياً على الأقدام أنا ورفاقي، وفي أيدينا أرسانُ جيادنا؛ وقد جرى في الوقت نفسه أمران: هو تركَ المجلسَ وصار الى منزله فيما كنّا نحن نقترب من مزار الشهداء. وفي غير إبطاء أوفدنا إليه من يخبره بمجيئنا. وحدث أن هرع شمّاسه لاستقبالنا فرجوناه أن يخبره حالاً بحيثُ يُتاح لنا أن نمكث معه وقتاً أطول، وأن نتمكّن من علاج كل ما بيننا بالعلاج الملائم. مكثتُ بعد ذلك جالساً في

الخارج منتظراً من يدعوني، وذلك كلّه في عيون جميع من جاءوا الى الاجتماع – مشهد غير لائق! مضى من الوقت وقتٌ طويل؛ وفي أثناء ذلك نُعاس، وفُتور – وقد ضاعف تعبُ السفر الفتور – وحرٌّ شديد؛ وكان من يروننا يُشيرون بعضُهم الى بعض بالأصابع... وكان كل ذلك شديداً عليّ بحيث تحقّق فيَّ كلامُ النبيّ: ((قد غُشيَ على روحي في داخلي)) ولم أُستدعَ للدخول إلاَّ عند الظهيرة، وفي نفسي ندمٌ مرير ومرٌّ لأني، فضلاً عن المقابلة، سَّببتُ لذاتي هذه الإهانة. وأشدّ عليّ من الامتهان الذي لحقني من خصومي، والغمُّ الذي كان يعتلج في نفسي وقد نازعت ذاتها وتحرّقت ندماً على ما فعلت.

بعد لأي انفتح لنا باب ((الهيكل)) ودخلنا ((قدسَ الأقداس))، ولم يُسمح بالدخول إلاَّ للقِلّة، فدخل معي شمّاسي يسند بذراعه جسمي المنهوك. حيّيتُهُ واقفاً بعض الوقت. ريثما يدعوني للجلوس، وإذ لم يفعل تراجعتُ خَجلاً وانزويتُ على مقعدٍ خشبيّ قريب، منظراً كلمةَ ترحيب، أو إشارةً من نظرٍ مُجيب. ولكن جرى كل شيء على غير ما كنتُ آملُ. فبعد هذه اللحظة، صمتٌ عميق كالليل، وحزنٌ مأسويّ، وذهولٌ، ورهبة، وسكونٌ تامٌ، وكأني بالوقت يجري في صمت طويل، وكأنه الليل الأسود الفاحم. أمّا أنا فقد غَلَت فيَّ روحي، إذ إنه لم يتنازل بكلمةٍ عاديّة يوجّهها إليّ ويُنقذ بها الموقف وما تقتضيه اللياقة والآداب العامّة، كأن يقول لي: هل كان سفرك موفَّقاً؟ أو: من أين أتيت؟ أو: لأيّ سبب؟ هل بدافع شخصيّ؟ أو فيمَ الإسراع؟ هذا الصّمت كنت أراهُ صورةً لِسُكنى الجحيم. وإنّي لأُنكِرُ في الحقيقة هذا التشبيه لأنّ الجحيم موطن المساواة الكاملة، ولا شيء يعكّر سُكناها ممّا ينسج على الأرض مأساة الحياة: ((فالمجد، على حدّ قول النبيّ، لا ينزل مع البشر))، ولكن نفس كل واحد، وقد أبت ما يهمُّ اليوم أكثرَ الناس، أعنى الوقاحة، والغطرسة، والصَّلَف، تأتي لتُقيم مع السِّفلة، فقيرةً وبسيطةً، بحيث يخلو جوّهم من بؤس الحياة الدُّنيا. إلاّ أن الحالة بالنسبة إليَّ كانت أشبه بجحيم، بسجن مُظلم، أو بأيّ مكان تعذيب آخر، عندما كنت أستحضر في خاطري ما أورَثَناهُ آباؤنا من خيرات، وما سنتركه لمن بعدنا من روايات. وماذا أقول عن تعاطف آبائنا؟ ليس من العجيب لأناسٍ في المرتبة الواحدة بالطبيعة أَلاَّ يتعالى الواحدُ منهم على الاخر، بل أن يتنافسوا في التواضع. والذي كان يشغل بالي وفكري هو: أنَّ ((سيّد الخليقة))، ((الابن الوحيد الذي هو فيي حضن الآب))، من هو ((في البدء)) من هو ((على صورة الله))، من هو ((ضابط كلّ شيء بكلمة قدرته)) لك يكتفِ بالتّنازل وسكنى الجسد في طبيعة إنسانيّة، ولكنه استقبل يهوذا الذي أسلمه بقبلةٍ من فيه، ودخل بيت سمعان الأبرص وعتبَ عليه لأنه لم يُلبّ داعي المحبة ويقبّلهُ. انا لم ألقَ حتى ما يلقاه الأبرص من معاملة. وذلك مِمَّن ولِمَن؟ الفرق في ما بيننا لم أجد له أثراً: من أين نزل، وأين أنا قابع – إذا نُظِرَ ولو قليلاً الى أمور هذه الدُنيا؟ فإن نُظِرَ الى الوضع من ناحية النّسب يمكن القول، من غير تجريح، بأنه بالمستوى نفسه، إذ إن المكانة الاجتماعية والشرفية هي هي عند كِلَينا. ولكن إذا نظرنا الى المكانة والرِّفعة الحقيقيّتين، الى مكانة النفس ورفعتها، فكلانا عبدا الخطيئة، ونحن بحاجة الى من يرفع الخطايا. إنسانٌ آخر، بدمه الخاصّ حرّرنا من الموتِ ومن الخطايا، افتدانا ولم يُبدِ أيّ مظهر من مظاهر الغطرسة تُجاهَ من خُلِّصوا، ذاك الذي يُعيد الموتى الى الحياة، الذي يشفي كلّ علّةٍ في النّفس والجسد.

هكذا إذن، كادت هذه الكبرياء الثّائرة في وجهنا، وهذه العنجهيّة المنتفخة تضيق بهما رحاب السَّماء، وكنتُ لا أرى أيَّ مادّة ولا أيّ سببٍ للمرض، عند أولئك الذين يُبرّرون مثلَ هذا الشُّذوذ عند من عُلُّوا لسببٍ ما كشرف الأصل، والتربية، والترقية الى رتبةٍ ما، فانتفخوا عُجباً في ذواتهم وضَعتِهم؛ وكنتُ لا أستطيع الاقتناع بالرُّضوخ، لأن قلبي في داخلي كان مضطرباً يهيجهُ الشذوذ في ما يجري، ويرفض بشدّة كل مجال للصّبر. وقد ألّحت عليَّ إذ ذاك صورة الرسول الإلهيّ وأُعجِبتُ بقوله الذي يصف فيه بوضوح الحربَ القائمة فينا، ويقول: ((إنّي أرى في أعضائي ناموساً آخرَ يُحاربُ ناموسَ عقلي ويأسِرني لناموس الخطيئة))؛ وقد لمستُ في نفسي صراع موقِفَين، موقف يثور للإهانة التي لحقتني من الغطرسة، وموقف يحاول تهدئة الاضطراب. وعندما تغلّب عندي، بعون الله، الميلُ الأصلح توجَّهتُ أنا إليه وقُلت: هل يا تُرى يعوقُ حضوري هنا بعضَ ما يُقدّم لك من عناية صحّية، وهل يجب عليّ ان أخرج؟ وإذ قال أنه ليس بحاجة الى عناية، توجَّهتُ إليه ببعض الأقوال اللطيفة، بقدر ما كان ذلك في وسعي. وبما أنه أوضح ببعض الكلمات أنه ناقم علينا لإهانات كثيرة صادرة عنّا أجبته قائلاً: للكذب في عالم البشر قدرة كبيرة على الخداع، ولكن القضاء الإلهي لا يقبل حجاج الخداع؛ وضميري من هذه الناحية في طمأنينة بالنسبة الى ما بيني وبينك، وأرجو أن أنالَ منك مغفرةَ آثامي الأُخرى، ولئن كانت قد بدرت مني أيُّ إساءة إليك فلتبقَ بلا مغفرة الى الأبد. غاظهُ كلامي فأبى أن أُضيف إليه البراهين على صِحَّتِه.

كانت السّاعة السادسة قد مرّت، والحمّام قد جُهّز، والطّعام قد هيئ؛ وكان اليوم سبتاً وعيداً للشُّهداء. كيف يقتدي تلميذ الإنجيل بسيّد الإنجيل؟ ذاك الذي كان يأكل ويشرب مع العشارين والخطأة، ويبرّر سلوكه أمام منتقديه بقوله أنه يعمل ما يعمل محبةً للبشر. هذا كان يعدُّ جلوسنا معه الى المائدة انتهاكاً للقدسيّات ورجساً. وهكذا بعد التّعب الشديد الذي عانيناه من جرّاء السَّفر، وبعد الحرَّ الشديد الذي جفَّفَنا ونحن جالسون في العراء على أبوابه، وبعد هذا الحزن المُظلم الذي تحملناه في حضرته، صَرَفَنا فعُدنا من حيثُ أتينا في الطريق التي سلكناها قبلاً، وبجسمٍ أضعفتهُ المسيرةُ وأنهكتهُ. مضينا إذن على مشقّة، ونحو المساء التحقنا برفاقنا، وما إن التأم شملنا حتى هبت علينا عاصفةٌ تجمّعت فيها الغيوم بغتةً في الفضاء وصبّت علينا من المطر الغزير ما اخترق عظامنا، بسبب الحرّ الشديد لم يكن علينا ما يقينا المطر. وهكذا كُنّا كأُناسٍ نجوا من العاصفة أو من الغرق، واستطعنا بعون الله، عن نجتمع برفاقنا في فرح عظيم، وبعد إذ قضينا جميعُنا الليلة في راحة وطمأنينة، وصلنا أحياءَ سالمين الى ديارنا، وكان الجنى الوحيد لهذا اللقاء إهانةً أيقظت فينا ذكرى كل ما جرى سابقاً.

لا بُدَّ لنا وللآتي من الأيّام أن نتّخذ قراراً لصالحنا، أو بالحري لصالحه هو؛ فإن غياب كل ما يضع حدّاً لتصرّفه في الماضي حمله على هذا الشّطط المتغطرس. فلكي يستطيع أن يُحسّن سيرته، قد يكون من المفيد ان نعمل شيئاً لكي يعرف أنه مجرَّد إنسان، ولا يحقّ له ان يُهين ويحقّر مَن هم على إيمانه ومن رتبته. هَب – اتكلّم افتراضاً – انني كنتُ له سبب بعض الإزعاج، فأيّ قضاءٍ حكم علينا عملاً وشبهةً؟ أيّ برهان على ظلمي؟ بأي قوانين حُكم علينا؟ أي قرار

شرعي لأحد الأساقفة صدّق على الحكم الصادر علينا؟ لو حدث شيءٌ من ذلك وفقَ القوانين لكان مقامُنا في خطر؛ ولكن أي القوانين قضت بتوجيه الإهانة الى أشخاص في الرُتبة الواحدة، وتحقيرهم؟

((أُحكموا حكمَ الحقّ)) أنتم الذين تنظرون الى الله. فيمَ ترون توجيه الإهانة إلينا معذوراً؟ إن كانت القيمة تقوم على الكهنوت، فقد مَنَحنَا المجمع بالتساوي الامتيازَ، أو بالحريّ مهمّة معالجة المور العامّة، بحيثُ لا يفضل أحدُنا الآخر في ذلك. ولكن إذا نُظِر إلينا في ذاتنا بمعزلٍ عن الكهنوت، فهل يفضُلُ أحدُنا الآخر في شيء؟ الأصل؟ التّنشئة؟ الحريّة أمام العُظماء والسُّلطات؟ العِلم؟ أننا لسنا دونه في ذلك كلّه. وأمّا الثروة؟ عسايَ أن لا أكون مضطراً الى الدخول في تفاصيل هذا الموضوع. يكفي أن نقول ما كانت في البدء وكم أصبحت في الوقت الحاضر، وأن نترك لغيرنا أن يتحرّى أسباب تضخّم هذه الثروة التي لا تزال تزداد وتغتذي كلَّ يوم بمشاريع رائعة. فما الذي يبرّر هذه الإهانة التي وجّهها إلينا، إذا لم يكن هنالك تفوُّق في شرف الأصل، وألَق الرُتبة، وبلاغة الخطابة، وبسط اليد بالمعروف؟ حتى لو وجد ذلك فإنّ إهانة أُناس أحرار أمرٌ لا يُغتَفر؛ وإذ لم يكن شيء من ذلك أرى أنه من الضروري إلاّ يُترك مرضُ الصَّلَف هذا بلا علاج؛ والدّواء هو في حطّ عنفوان الغَطرسة، وفقئ الادّعاء الباطل، عندما يُفشّ انتفاخ الكبرياء. عسى أن يوفّق الله الى ذلك.

الرسالة الثانية

إلى كِينسِتور في موضوع الحجّ الى أورشليم

بما أنّك استشرتني برسالتك، أيُّها العزيز، رأيتُ من الموافق أن أجيب، بحسب الترتيب، عن جميع الأمور. أقول أنا إنه يجب على الذين انقطعوا انقطاعاً تاماً لطريقة الحياة السّامية ان تكون انظارهم أبداً ثابتةً في كلام الإنجيل؛ وكما يفعل من يريدون تقويمَ شيءٍ وإرساله على القاعدة، معالجين ما في أديهم من اعوجاج ليستقيم استقامة القاعدة، كذلك يجب، في اعتقادي، على الذين يتقيّدون، نوعاً ما، بقيودِ قانونٍ مستقيم وثابت – أعني طريقة الحياة الإنجيلية – ان يسيروا باستقامة نحو الله، مُراعين ذلك القانون وعاملين به. وإذ كان في ما بينهم مَن اختاروا الحياة النُّسكيّة والانعزاليّة، ورأوا أنه من أعمال التّقوى أن يزوروا في أورشليم الماكن التي تثرى فيها آثار إقامة الربّ بالجسد، يحسُنُ أن يُلتفَتَ الى القانون فاذا دعت الى ذلك توجيهاته جرى العمل كما لو كان تحقيقاً لأوامر الربّ. ولكن إذا كان ذلك غريباً عن وصايا المعلّم فأني لا أعرف ما معنى إرادة العمل عندما ننصب أنفسنا قانونَ صلاح. عندما يدعو المعلّم المختارين ليرثوا ملكوت السماوات لم يَعُدَّ السَّفر الى القدس من الأعمال الصالحة؛ عندما عدّد التطويبات لم يُدخل فيها عملاً كهذا. ما لا يجعل الإنسان أهلاً لطوبى، ولا أهلاً للملكوت لماذا نهتمّ له؟ فليتفحّص ذلك من كان ذا عقلٍ مُفكّر. ولو كان ذلك العمل مُفيداً فلا يمكنه ان يكون صالحاً يهتمّ للقيام به طالبو الكمال. وإذ كنا نرى بوضوح ان هذا العمل يُلحق بمن اعتنقوا الحياة النظاميّة ضرراً روحيّاً، لم يعد ممّا يستحقّ الاهتمام الكبير، بل ممّا يستدعي الحذَر والتيقّظ، حتى لا يُمَسَّ من اختار الحياة لله بشيء من السُّر والأذى.

أيّ أذىً في ذلك؟ طريقة حياة التَّقوى معروضةٌ على الجميع رجالاً ونساءً، والحشمة ميزة حياة الفلسفة؛ فهذه الحياة تتحقق بوجودٍ هامشيّ ومنعزل، لا علاقة فيه للجنسيَن اللذين يظلاّن منفصلَين أحدهما عن الآخر، فلا النساء بين الرجال، ولا الرجال بين النساء عرضة للإثارة. وإن مقتضيات السّفر تحمل دائماً على خَرق النظام بين هؤلاء وتقود الى اللامبالاة في موضوع التقيّد بالآداب. انه يستحيل على امرأةٍ أن تجتاز مثل هذه المسافة بدون أن يكون معها مِن يحميها؛ بسبب ضعفها الطّبيعيّ تُساعَد على امتطاء مطيّتها، وعلى النزول عنها، وتُسنَّد عليها إذا توعّرت الطّريق. فمهما كانت الحال – سواء كان من يعتني بها أليفاً، أو كان من يقوم بخدمتها أجيراً – يكون السلوك في الحالين مَلُوماً: فسواءٌ تسنّدت على غريب، أو تسنّدت على قريب، يكون عملها مخالفاً لقانون العفّة. أضف الى ذلك أن الفنادق والنُّزُل والمدن في الشرق تعبق بالإباحة واللامبالاة الشريّرة. فكيف يستطيع الماشي في الدُّخان ان ينجو من تهيُّج العينين؟ حيثما تكن الأذن موسَّخة، والعين موسّخة، يكن القلب أيضاً موسَّخاً يتلقّى السّفاهة من العين والأذن. كيف يستطيع الإنسان ان يجتاز هذه الأمكنة الفاسقة غيرَ متأثّر ولا مُنفعل؟ ثمّ أيّ شيء يكتسب من يذهب الى هذه الأماكن؟ وكأنّ الربّ يعيشُ هناك بالجسد الى هذا اليوم، ويغيب عنّا، وكأن الروح القدس يّفيض عند

سكّان أورشليم ويغيض عندنا؟ وفي الحقيقة لو كان من المُمكن أن نلمس حضوراً لله في كل ما نرى لكنّا نميل الى أن الله يسكن في أُمّة الكبادوكيّين لا في الأماكن الغريبة. كم من المعابد هنا يُمجّد فيها اسم الله! والمعابد في العالم كلّه تكاد لا تُحصى! ولو كانت نعمة الله أغزر في أماكن أورشليم لما تفشّت الخطيئة في سكّانها، وليس هنالك اليوم شذوذ لم ينجرّوا إليه: فِسق، زنى، سرقة، عبادة أصنام، تسميم، مؤامرات، قتل. وقد تجذّر الشرُّ في هذه الأماكن بحيث انتشرت فيها جريمة القتل أكثر مما انتشرت في أيّ مكان آخر: أُناس من دم واحد ينقضّ بعضهم على البعض الآخر كوحوش ضارية، ولأجل مكسب خسيس. فعندما يجري مثل هذه العمال القبيحة أيُّ برهان يكون على أن النعمة أوفر وأعظم في هذه الماكن؟

إنّي أعرف الاعتراض على كلامي من قِبَل الكثيرين؛ فهم يقولون: ((لماذا لم تعتمد هذه الخطّة لنفسك أيضاً؟ إذا لم يكن أيّ فائدة من الزّيارة لم يقوم بهذا السّفر باسم الله، فلماذا تجشّمت سُدىً هذا السَّفر نفسه؟ فَليُصغوا الى دفاعي. إنه عبءٌ جعله على عاتقي مَن يحكم حياتنا عندما أتاني الأمر من المجمع المقدّس بالتوجّه الى تلك الديار لأعيد النّظام الى نصابه في كنيسة بلاد العرب. وغذ كانت بلاد العرب تُتاخم منطقة أورشليم وعدتُ بأن أقوم أيضاً، مع رؤساء كنائس أورشليم المقدّسة. بتفحّصٍ لأحوالهم المضطربة والتي كانت بحاجة الى وسيط. وفضلاً عن ذلك فقد قدّم لنا الامبراطور الكلّي التقوى ما سهّل السّفر أي العربة العامّة، ولم نكن معرّضين لأي نوع من أنواع العذاب التي عاناه غيرنا، إذ إنّ العربة كانت لنا بموقع كنيسة ودير نجتاز فيها المسافة كلّها ونحن نتلو المزامير ونصوم لأجل الربّ. فلا تكن سيرتُنا إذن مبعثَ عثرة لأحد، بل فليكن نُصحُنا موضوع ثقةٍ وتصديق، لأننا لم نذكر إلاّ ما شاهدته عينانا. وأن يكون المسيح الذي ظهر على الأرض، بالنسبة إلينا الله الحقّ، قد اعترفنا بذلك قبل ذهابنا الى تلك الأماكن وبعده، وإيماننا بعد ذلك لم ينقص ولم يزدد؛ التجسّد من العذراء نعرفه قبل رؤيتنا لبيت لحم؛ قيامة الموتى نؤمن بها قبل مشاهدتنا القبر؛ الصعود الى السماء اعترفنا بصحتّه قبل رؤيتنا لجبلِ الزيتون. الشيء الوحيد الذي أقدناهُ من هذه الرحلة هو معرفةُ أنّ ما لدينا أقدس ممّا رأينا.

((يا أتقياء الربّ سّبحوه)) حيثما كنتم. ان تغيير المكان لا يقّرب من الله، ولكن الله يأتي إليك حيثما كنت إذا كان مسكن نفسك أهلاً لأن يسكن الله ويعمل فيه، ولكن إذا كان ((إنسانك الداخلي)) حافلاً بالأفكار الشرّيرة فأنت بعيدٌ عن استقبال المسيح فيك بُعدَ مَن لم يبدأوا الاعترافَ به، وذلك وإن كنتَ على الجلجلة، وعلى جبل الزيتون، وفي قبر القيامة.

انصح هؤلاء الإخوة، أيّها العزيز، أن يخلعوا الجَسَد ليذهبوا الى الربّ، لا كبادوكية ليذهبوا الى أورشليم. وإن احتجّ أحد بكلام الربّ الذي يحضّ تلاميذه على إلاّ يبتعدوا عن أورشليم عليه أن يفهم معنى هذا القول. دعا الربّ رسلَهُ الى أن يلبثوا في المكان نفسه الى أن يُلبَسوا القّوة من فوق، وذلك لأنّ نعمة الروح القدس لم تكن بعد قد وُزعت عليه. إذا كان ما جرى بالأمس يجري اليوم أيضاً فيوزّع الروح القدس نِعمَه على كل واحد وكأنها ألسنة من نار، كان من

واجب الجميع أن يمضوا الى حيث وزّعت النعمة؛ ولكن بما أن ((الروح يهبّ حيث يشاء)) فالمؤمنون الذين هنا يشتركون هم أيضاً في النعمة ((بمقدار إيمانهم)) لا بسبب ذهابهم الى أورشليم.

الرسالة الثالثة

من غريغوريوس إلى الأختين

الشديدتَي الفضيلة والتقوى أوسطاثيا وأمبروسيا،

وإلى الأبنة الشديدة الفضيلة والتقوى بازيليسّا.

سلامٌ في الرب

إن لُقْيَا أهل الخير والصلاح الأعزاء لديّ، والآثار الناطقة بمحبّة الرب لنا والتي تظهر في هذه الأماكن، كل ذلك كان لي مدعاة سرورٍ عظيم وسعادة لا حدَّ لها. فهذان المظهران أطلعاني على ما يكون العيد في نظر الله، وعلى الرموز الخلاصيّة لله الذي أحيانا، وسمحا لي بلقاءِ نفوسٍ تتجلّى فيها روحيّاً علامات نعمة الربّ بحيثُ يُظنّ أن بيت لحم، والجلجلة، وجبل الزيتون، والقيامة هي في قلب من يملكون الله. فإنّ من اتّخذ صورة المسيح بفضيلة ضميره، مَن سمَّر جسده بمخافة الله وصُلِبَ من المسيح، من دحرج عنه حجر الحياة الخدّاعة الثقيل، وخرج من قبر جسده، سائراً في جدّة الحياة؛ ومَن تخلّى عن حياة البشر العامّة والأرضيّة، وتعالى، برغبةٍ سامية، إلى مستوى الحياة العليا، من تاقَ إلى الحقائق السامية، حيث يوجدُ المسيح، وهو غير مُثقل بكثافة الجسد، بل مُتحرِّر بخفّة الحياة الطاهرة، بحيث أن جسده ينطلق معه كغمامةٍ في الأعالي، هذا في رأيي يشترك في الحقائق التي ذكرتُها، والتي تتجلّى فيها ذكريات محبّة السيّد لنا.

هكذا عندما شاهدتُ الأماكن المقدسة بطريقة محسوسة، ورأيت أيضاً فيكنّ ميزات تلك الأماكن، امتلأت نفسي فرحاً لا تستطيع الألفاظ أن تُعبّر عن عظمته. ولكن يبدو من الصّعب، حتى لا أقول من المستحيل، أن يجني الإنسان الخير خالياً من كل شّر، ولهذا خامر تمتُّعي بهذه الأمور العذبة بعضُ الشعور بالمرارة. وهكذا، بعد تمتّعي بفرح هذه السّعادة، عدتُ إلى وطني بوجهٍ حزين، قائلاً في نفسي أن كلمة الربّ صادقة، تلك التي ذكر فيها ((أن العالم كله تحت سلطان الشرير))، بحيث لا توجد ناحية من العالم خالية من بعض الشّر. وإذا كان هذا المكان الذي تقبّل أثر الحياة الحقيقية المقدسة غير خالٍ من الأشواك الحادّة، فما القول عن باقي الأماكن التي لم يُبذَر فيها الاشتراك في الخير بالسماع والتبشير؟ ما أُشير إليه بكلامي هذا لست بحاجة إلى التصريح به والإغراق في تفسيره، فالأحداث نفسُها تجهر بما هو محزن ومؤلم أكثر من أيّ كلام معروف. إن مشترع حياتنا أمرنا بالعداء، أعني معاداة الحيّة، وطلب ان لا نُطلق طاقتنا العدائيّة إلاّ في كراهية الشّر، قال: ((أجعل عداوةً بينكِ وبين المرأة وبين نسلك ونسلها)). وبما أن الشرّ متعدّد، ويظهر بمظاهر مختلفة فكلام الكتاب يجسّده في الحيّة دالاً على تعدّده بتعدُّد حراشفها. ونحن قد أصبحنا حلفاءَ الحية بانقيادنا لرغبات العدّو، وتوجّه

حقدُنا من بعضنا إلى البعض الآخر، وقد يكون ذلك إلى من أعطانا الوصية، فقد قال: ((أحبِبْ قريبك وأبغض عدوّك))، على أن نعدّ عدوًّا لنا أوحدَ من يُناوئ طبيعتنا، وقريباً لنا كل من يُشاركنا في الطبيعة. ولكنّ جيلنا، في قسوة قلبه، بعدما فَصَلنا عن القريب، عمل على تهييج الحيّة والاستمتاع بِرُقَطِ حراشِفها. أنا أرى أنّ كُره أعداء الله أمرٌ شرعي، وأن هذا الكُره يروقُ الربّ، وأعدُّ أعداءً أولئك الذين ينكرون مجد الرب، أيًّا كان طريقتهم في ذلك، سواءٌ أكانوا يهوداً أو وثنيّين، أو أتباع آريوس الذين بتمشّيهم في خطّهُ يجعلون من الخليقة وثناً، ويكرّرون ضلال اليهود. ولكن إذا مُجّد وعُبد الآب والابن والروح القدس بتقوى، من قِبَل الذي يؤمنون أنّ في الثالوث الأقدس الخالي من كل التباس، وحدةً في الطبيعة، والمجد، والملك، والقُدرة، والمَعْبوديّة، والمقدرة على كل شيء، ففي هذه الحال علامَ يقوم العداء؟ عندما كانت مذاهب الهرطقة راجحة كان من المُستحسن أن يُغامر الإنسانُ ويتصدّى للسلطة التي كانت تُغلِّب تعاليم الخُصوم، حتى لا تخضع كلمةُ الخلاص للسلطة البشريّة.

ولكن الآن، وقد بُشّر بالحقيقة الواحدة في الأرض كلّها، من أقصاها إلى أقصاها، فكلّ من يقاوم المبشّرين بالحقيقة لا يقاوم المبشّرين بل يقاوم من يبشّرون به. أيّ هدفٍ يكون لمن تُلهبُهُ الغيرة الإلهية سوى أن يُبشّر بمجد الله على كل وجه؟ واذ كان الأمرُ أن يُعبدَ الله من كل القلب وكل النّفس إلهاً واحداً، له ما للآب كُلاً بكلّ، وأن يمجّد الروح القدس كذلك بعبادةٍ تؤدّي له ما للآب والابن من التكريم، فما الداعي الكاذب لمماحكات جماعة التمحيص والتدقيق، أولئك الذين يمزقون القِباء الذي لا يقبل الإتلاف ويقترعون على اسم الرب ما بين بولس وكيفا، وينكرون صلة من يعبدون المسيح، قائلين في سرّهم: ((إليك عنّي! لا تدنُ مني فإني طاهر!)). لِنُسلِّم بأنهم هبوا أكثر مما ينبغي في العرفان بالنسبة إلى ما اعتقدوا فهمَهُ. هل لديهم ما يعتقدونه أكثر من أن ابن الله الحقيقي هو الله الحقيقي؟ الاعتراف بالله الحقيقي يتضمّن جميع المعاني الأرثوذكسية والخلاصية أي أنه صالح، وعادل، وقادر، وغير قابل للتحوُّل، وأبداً هو هو، غير قابل النقصان ولا الزيادة، لأنّ النقصان مخالف لطبيعته، والزيادة لا معنى لها مع كماله: أي شيء أعلى من العلي، وأصلح من الصلاح؟ وهكذا فَمَن يُعَدُّ حاصلاً على كمال الصلاح كلّه، هو غير قابل لأيّ نوع من أنواع التغيُّر، وهو لا يُظهر فيه هذه الميزة وفاقاً للظروف والأحوال، ولكنّه يملكها أبداً على الحال نفسها، قبل التدبير الإلهي الذي يجعل منه إنساناً، وإبّان ذلك وبعده، بدون أن يحصل تبدُّل في طبيعته إذا ما سعي في سبيل خلاصنا. ما هو بطبيعته غير قابل الفساد والتحوُّل يبقى أبداً على حاله، وليس من التحوّل في أن يتّخذ بتدبير إلهيّ طبيعتنا البشرية؛ فكما أن الشمس، عندما تُرسل شعاعها في الظلام لا تضعف نور هذا الشُّعاع، ولكنّها تُحوّل به الظل الى نور. كذلك النور الحقيقيّ، الذي تألَّق في ظلماتنا، لم تُغشِّهِ الظُّلمات، ولكنَّه أنار بذاته الظُّلمات. واذ كانت البشرية في الظُّلمات على حد ما كُتب- ((إنهم لا يعلمون ولا يفهمون، يسلكون في الظُّلمة)) - فان الذي أنار الطبيعة المظلمة وأرسل شعاع أُلوهته على مُرَكّبِنا، أعني النفس والجسد، أشرك العنصر البشري كله في نوره الذاتي وحوله، بهذا التّمازُج، إلى ما هو عليه؛ وكما أنّ الألوهة لم تفسد بنزولها في جسد قابل الفساد، كذلك لم تتغيّر بشفائها ما هو متغيّر في نفسنا. في مهنة الطبّ، عندما يلمس

الطبيب جسم المريض لا يتحول هو إلى مريض، بل يشفي المرضى. فلا يحسَبْ أحدٌ، وهو يُسيءُ تفسير الإنجيل، أنَّ طبيعتنا، بتطوّر ونموٍّ طبيعي، تحوّلت شيئاً فشيئاً، في المسيح، إلى حقيقة أكثر أُلوهةً. إنّ قول الإنجيل بأنّه ((كان ينمو في السنّ والحكمة والنّعمة))، ما هو إلاّ برهانٌ على أنَّ الرب كان حقاً في مُرَكَّبنا البشريّ، بحيثُ لم يبقَ مجالٌ لرأي من يذهبون إلى أن هنالك ظاهرة مُشَكَّلَةً في صورة جسم، لا ظهوراً إلهيًّا حقيقيًّا. ولهذا فما هو من مقتضيات طبيعتنا ذكره الكتاب عنه بدون خجل: الأكل، والشرب، والنّوم، والتّعب، والرضاعة، والتطوُّر، والنموّ في القامة والجسد، كل ما هو شأن طبيعتنا، ما عدا الميل إلى الخطيئة. فالخطيئة هي في الحقيقة سقوط، لا ميزة من ميزات طبيعتنا، كما أنَّ المرض او التشوُّه لم يلازما طبيعتنا منذ البدء، ولكنهما يحدثان خلافاً للطبيعة. وكذلك الدّافع الذي يدفعنا نحو الشرّ، فهو انحراف للخير الذي في طبيعتنا، وليس له وجود ذاتي، وانما هو غياب الصلاح. فالذي غيّر طبيعتنا، بالقدرة الإلهية، حفظها، في ذاته، خاليةً من كل شائبة ومن كل مرض، ولم يقبل، باختياره الحرّ، التشوُّه الذي تجرّه الخطيئة، لأنّه ((لم يقترف قطّ خطيئة، ولا وُجِدَ في فمهِ مكر)). ولا نرى ذلك فيه بعد فترة من الزّمن، ولكن الإنسان منذ وجوده في حشا مريم، ذاك الذي ((ابتنت الحكمةُ لها فيه بيتاً)) كان مشتركاً بطبيعته في مُركَّبِنا الخاضع للأهواء؛ ولكنه، في الوقت نفسه، صار، بحلول الروح القدس وقدرة العلي، ما هو عليه الآن من الطبيعة الخاصّة ((لأن الأدنى يأخذ البركة من الأعلى)). فبما أن قدرة الألوهة هي أمر لا حد له ولا قياس فيما ان العنصر البشري هو أمر ضئيل وغير ذي شأن كبير، فعندما حلّ الروح القدس على العذراء وظلّلتها قدرة العليّ، لم يَنَلْ هذا المسكنَ القائم هكذا شيءٌ من الفساد البشري. لقد كان في الحقيقة إنساناً، ولكن كما كان في حاله الأولى، وكان على كل حال روحاً ونعمة اذ كانت ميزة طبيعتنا الخاصة تتألَّق في فيض القدرة الإلهية. وإذا كان هنالك حدَّان للحياة البشرية، حدّ البداية وحدّ النهاية كان من الضروري لمن يعتني بحياتنا كلّها أن يأخذنا بهذين الطرفين، البداية والنهاية، ليُنهض بينهما الإنسان الرّاقد. فما نعرفه بالنسبة إلى النهاية، نفكّر فيه أيضاً بالنسبة إلى البداية؛ ففي شأن النهاية، وبتدبير إلهيّ، أجرى انفصالاً للجسد عن النفس، ولكن الأُلوهة غير قابلة الانقسام، وقد امتزجت امتزاجاً ثابتاً بهذا الكل، ولم تنفصل لا عن الجسد ولا عن النفس: بنفسها تكون في السماء، فاتحة الطريق للبشر بشخص اللصّ، وبجسدها تكون في جوف الأرض، مُبيدة ((من كان له سلطان الموت))، ولهذا فالجسد يُدعى هو أيضاً ربّاً بسبب الألوهة الموجودة فيه. وهكذا، في ما يتعلّق بالبداية، فإننا نرى أن قدرة العلي التي امتزجت بطبيعتنا كلّها بحلول الروح القدس، توجد أيضاً في نفسنا كما يليق أن تكون في النفس، وقد امتزجت بالجسد لكي يكون خلاصنا كاملاً في كل شيء. إلا أن الأُلوهة قد حافظت، في بداية الحياة البشرية ونهايتها، على عدم التأثر السامي اللائق بالله. وهكذا لم تكن بدايتها كبدايتنا، ولا نهايتها كنهايتنا، ولكنهما أظهرا في حاليهما القدرة الإلهيّة: فالبداية لم تتلطّخ بالدنس، والنهاية لم تَؤُلْ إلى فساد.

إذا كنا نُعلن ذلك، ونشهد أن المسيح هو قدرة الله وحكمة الله، أبداً بدون تغيُّر، وأبداً بلا فساد، حتى لو وُجد في ما هو متغيّر، وقابل الفساد؛ انه بريءٌ من كل فساد، بل أنه بخلاف ذلك مُطهِّرٌ لكل دَنَس، ففيمَ نحن مُذنبون، ولماذا

نَبْعَثُ على الحقد؟ وما معنى أن نُعارض بهياكل جديدة؟ هل نبشّر بيسوع آخر؟ هل نعلّم غير تعليمه؟ هل نضع كتباً مُقدسَّة أُخرى؟ هل تجرّأ أحدٌ منا أن يدعو العذراء القديسة أُمًّا للإنسان لا أُمًّا لله، كما نسمع ذلك عند بعضهم بكل وقاحة؟ هل نبتدع خرافة قياماتٍ ثلاث؟ هل نعيد أنفسنا بقصوفِ ألف سنة؟ هل نقول بالعودة إلى ذبائح اليهودية الحيوانية؟ هل نُميل آمال البشر نحو أورشليم أرضية، نتخيل إعادة بنائها بحجارةٍ جميلة المظهر؟ بأي من هذه الأمور نُتّهم لكي نُحاكم ونُعدّ مِمَّن يجب تجنبُّهم، ولماذا يقيم بعضهم ضدَّنا هيكلاً آخر، وكأنّنا ننتهك الأشياء المقدّسة؟

بسبب ذلك وحالَ عودتي إلى العاصمة، سارعتُ، والقلب يضطرم غيظاً وحزناً، لأُفرغ مرارةَ نفسي بالكتابة إلى محبَّتِكُنَّ. أَمَّا أنتُنَّ فسِرْنَ مع الرُّوح القدس إلى حيثُ يتّجهُ، ماضياتٍ في سبيل الله، غير مُصْغِياتٍ إلى اللحم والدم، ولا معطيات مجالاً للمفتخرين حتى لا يفتخروا بكُنّ ويكون لهم من حياتكنّ مطمع. اذكُرنَ الآباء القدّيسين الذين جعلكنَّ بين أيديهم أبوكنَّ الطوباويّ الذي استحققنا بنعمة الله أن نخلفه. لا تغيّرنَ الحدود التي وضعها لكنّ آباؤكُنَّ، لا تَحقِرْنَ الكلام البسيط في الوعظ العاديّ، لا تفضّلن التعليم المعقّد، بل اتّبعنَ طريقة الإيمان القديمة، واله السلام يكون معكنَّ. فليحفظكنَّ الربُّ سالمات النفس والجسد في غير فساد. هذا ما نطلبه لكنّ.

الرسالة الر بعة

الى أوسابيوس

عندما يأخذ ميزان النهار في الامتداد في فصل الشتاء، عندما ترتفع الشمس في مسارها الصاعد، نحتفل بعيد ظهور النّور الحقيقيّ الذي تألق في الجسد على الحياة البشريّة. ولكن الآن وقد أصبح الكوكب، في مساره، في وسط السماء، بحيث تساوى الليلُ والنهار، انتقلت الطّبيعة البشريّة من الموت الى الحياة التي هي لنا الدّاعي الى هذا العيد العظيم والشامل الذي يحتفل به معاً من جميع الأحياء أولئك الذين تقبّلوا سرّ القيامة. ما قد يكون لي موضوعٌ هذه الرسالة؟ - اذ درجت العادة، في هذه الأعياد العامّة، أن نتبادل، بأساليب مختلفة، ما في نفوسنا من عواطف، وأن يُظهر البعضُ أحياناً فرحهم بتبادل الهدايا، فكّرنا في أنه من اللائق أن لا نحرمك من هدايانا، بل ان نُكرم نفسك النَّبيلة والكريمة بما لدى فقرنا من هدايا وضيعة. هديّتنا التي نقدّمها لك عن طريق الرسالة هي هذه الرسالةُ نفسُها. ليس فيها خطاب مُنمق بعبارات متساوقة، وأسلوب بليغ تجعل من هذه الرسالة، في نظر البُلغاء من أرباب الأدب، هديّة قيّمة، ولكن فلتكن الذهب السرّيّ ملفوفاً في إيمانِ المسيحيّين كما في قطعة نسيج، يُقدَّم لك ظاهراً للعيان قدرَ الإمكان، بهذه الرسالة، ومُظهراً ألقَهُ الخفيَّ.

فلنرجع الى مقدّمتنا. لماذا، عندما يهبط الليل ويبلغ ذروته، ويقف امتدادهُ، يظهر لنا في الجسد من يقبض بيديه على الكون، ويبسطُ سلطانه الذاتي على الخليقة، هو الذي لا تحويه الكائنات، بل يحيط بالكون كلّه، ويتخذ مسكناً له في موضع وضيع جدّاً؟ إن قدرته العظيمة اتّفقت اتّفاقاً حميماً مع إرادته الخيّرة، وظهرت على نفس المستوى في كل مكانٍ شدَّتها إليه تلك الإرادة؛ وعندما لم تكن القدرة، في خلق الكائنات، دون الإرادة مستوىً؛ وعندما أراد النزول الى ضعة طبيعتنا لخير البشر، لم يكن عاجزاً عن تحقيق ذلك، ولكنة أتى في هذه الحالة من غير أن يُهمل إدارة النظام الكوني. وإذ كان هنالك بعض العلاقة بين هاتين الحالين – كيف يظهر يوماً في الجسد وكيف أنه في زمن تساوي الليل والنهار، يُعيد الإنسان الى الحياة بعدما عاد بالخطيئة الى التراب، - سأعالج الموضوع بإيجاز، وبقدر ما يكون ذلك بإمكاني، وسأقدّم لك هذه المعالجة هديّة لك.

لا شكّ أنك أدركت، في حِدَّة تبصُّرك، السرَّ الذي تُشير إليه هذه الأحداث – تقدُّم الليل يقطعُهُ ازديادُ النور، والظلّ آخذٌ في التراجع فيما يزداد طولُ النهار بدفعاتٍ متلاحقة. من الممكن أن ذلك واضحٌ لمُعظم الناس، لأنّ هنالك تقارباً بين الظُّلمة والخطيئة، وقد دُعي الشرُّ هكذا في الكتاب المقدَّس. إنه رمز تدبير الخلاص لصالح نفوسنا هذا الزّمنُ الذي يبدأُ فيه سرُّنا. كان لا بُدَّ، وقد امتدّ الشرُّ، امتداداً لا حدّ له، من أن يظهر النّهارُ الذي يتلألأُ فينا بفضائلنا بفضل من جعل مثل هذا النّور في نفوسنا، بحيث نزداد الحياة النورانيّة أكثر فأكثر، ترفدها تراكماتُ الخير، وبحيث تتضاءَل، الى أقصى حدّ، حياةُ النّقيصة وتتلاشى شيئاً فشيئاً، إذ إن ازدياد الخير مَنقصةٌ للشّر.

أما فصل الاعتدال الذي يقع فيه عيد القيامة فهو يدلّ على ذلك بنفسه أي على أن الحياة النُّورانية لن تواجه بعدُ جيشاً عدوّاً في صراعٍ يكون فيه الشرّ والخير متكافئين في السّلاح، بل ستنتصر بعدما يُلاشي فيضُ نور النهار ظلامَ الوثنيّة. ولهذا فأنّ مسيرة القمر، في اليوم الرابع عشر، تبديه قُبالةَ أنوار الشمس، مليئاً بكلّ غنى تألُّقه، وآبياً أن يستقبل أيَّ ظِلّ في سمته ولا يتوارى إلاّ بعد اختلاط أنواره بأنوار الشمس الحقيقيّة، بحيث يبقى في الكون نورٌ واحدٌ غير منقطع، مع التمييز ما بين الليل والنَّهار بظلمة خفيفة شفّافة.

هذا ما نقدّمه لك أيّها الصّديق العزيز هديةً من نسج قلمنا الضّعيف المُتواضع. فلتكن حياتُك كلُّها عيداً ونهاراً عظيماً، خالياً، قدرَ الإمكان، من الظّلمة الليليّة.

الرسالة الخامســـة

رسالة الى الذين لا يعتقدون أن إيمانه قويم

طلبها جماعة سيبسطية

بعض الإخوة الذين تربطنا بهم العاطفة أطلعونا على النَّميمة المدبَّرة علينا من قِبَل ((أعداء السلام)) الذين ((يغتابون القريب في الخفاء))، لا يخشون محكمة الله العُظمى، محكمة مَن قال ان كلّ كلمة باطلة ستؤدي عنها حساباً في الحياة الأخرى. قالوا لنا إن المآخذ التي فُلِقت بها آذانهم هي لأننا نذهب في تفكيرنا خلافَ ما عرضهُ آباءُ نيقية في حقائق الإيمان القويم، وأنّنا استقبلنا، بدون تبصّر وامتحان، في شركة الكنيسة الكاثوليكيّة، أولئك الذين كانوا يجتمعون سابقاً في أنقيرا بإشراف مَركلُّس. ولكي لا يتغلّب الكذبُ على الحقيقة دافعنا عن أنفسنا دفاعاً كافياً، في كتاباتنا الأُخرى، ودحضنا ما اتُّهمنا به. لقد أثبتنا بشدّة أمام الربّ أننا لم نَحِد عن إيمان الآباء القديسين، وأننّا لم نتصرّف بدون تبصُّر وامتحان في شأن أتباع مَركلّس الذين التحقوا بالشركة الكنسيّة؛ ولكن بما أن الإخوة والزُّملاء الأرثوذكسيّين في الشرق قد وكلوا إلينا أن نتّخذ قراراً في شأن هؤلاء، قُمنا بالاتّفاق معهم على ما يتمّ إجراؤه، فسوَّينا الأُمور كلَّها وحسمنا الخلاف. ومع ذلك فبعدما قمنا بالدّفاع عن نفسنا كتابةً، وبعدما طلب إلينا بعض الإخوة، المتّحدين معنا في العاطفة، أن نعلن مرّةً أُخرى وبالصّوت الحيّ قانون الإيمان الذي نعتمده كليّاً، رأينا من الضروريّ، اعتماداً منا على الأقوال التي أوحى بها الله، وعلى تقليد الآباء، أن نوضح موقفنا في الموضوع بكلام وجيز.

نحن نعترف أنَّ ما علّمه الربّ للرسُل عندما نقل إليهم ((سرّ التقوى)) هو قاعدة الإيمان القويم الصَّحيح وأَصله، ونعتقد أن ليس هنالك أسمى وأوثق من هذا التّقليد. والحال أن تعليم الربّ هو ما يلي: ((اذهبوا وتَلمذوا جميع الأمم، وعمّدوهم باسم الآب والابن والروح القدس)). وهكذا فالقدرة التي تُحيي المولودين ثانيةً من الموت الى الحياة الأبدية. تأتي، بفعل الثالوث الأقدس، للذين وُجدوا بإيمانهم أهلاً للنعمة. وكذلك تكون النعمةُ غير كاملةٍ عندما يغفلُ اسمُ أحدِ أقانيم الثّالوث الأقدس في المعموديّة الخلاصيّة: ليس بالابن والروح القدس فقط دون الآب، يتمّ سرّ التجدُّد؛ وليس بالآب والروح القدس، دون الابن، يتمّ كمال الحياة في المعموديّة؛ وليس بالآب والابن، دون الروح القدس، تتمّ نعمة القيامة. ولهذا فكلّ رجائنا، وكلّ ضمان لخلاص نفوسنا إنما هما في الأقانيم الثلاثة، وقد بلغتنا في هذه الأسماء الثلاثة. فنحن نؤمن بأبي ربنا يسوع المسيح، الذي هو ينبوع الحياة، وبابن الآب الوحيد الذي هو سيّد الحياة، على حدّ قول الرسول، وبروح قدس الله الذي قال عنه الرب ((إنه الروح المحيي)).

وإذ كانت نعمة عدم الفساد تأتينا، نحن المفتديين من الموت، في المعموديّة الخلاصيّة، بالإيمان بالآب والابن والروح القدس، كما سَلَف لنا القول، فإننا نؤمن، على هذا الضّوء، بأن لا شيء خسيس ولا مخلوق، ولا غير لائق بعظمة

الآب، يمكن أن يكون في الثالوث الأقدس – إذ إنّ الحياة التي تأتينا بالإيمان بالثالوث الأقدس هي واحدة، الحياة التي تنبع من إله الجميع، وتنمو بالابن، وتعمل بالرّوح القدس.

فبهذا الاقتناع الكامل بأننّا نلنا المعموديّة والرتبة الكنسيّة، نؤمن في معموديتنا، ونسبّح في إيماننا، بانسجام المعموديّة والإيمان والتسبيح في الآب والابن والروح القدس. إذا قال أحدٌ بإلهين أو ثلاثة آلهة أو ألوهات، فليكن مُبسلاً؛ وإذا قال أحد مع آريوس بأن الابن والروح القدس صدر عن العدم فليكن مُبسلاً. إنّ الذين يسلكون طريقة الحقيقة، ويعترفون بالأقانيم الثلاثة في خواصّهم الذاتيّة، والذين يؤمنون ألوهة واحدة، وصلاح واحد، ومبدأ واحد، وسلطة وقدرة، ولا يتنكّرون للسلطة الواحدة، ولا يسقطون في عبادة الآلهة، ولا يحسنون التمييز ما بين الأقانيم، لا يجعلون الثالوث المقدّس مركّباً من عناصر متنافرة، بل يتقبّلون ببساطة عقيدة الإيمان جاعلين رجاء خلاصهم في الآب والابن والروح القدس. هؤلاء، في رأينا كما نفكّر، ومعهم نطلب ان يكون لنا نحن أيضاً نصيب مع الربّ.

الرسالة السادســة

الى الأسقف أفلافيوس

لقد قادنا الربُّ الى ميناءٍ أمين، كما كان ذلك منتظراً لصلاتك التي كانت تُرافقنا، وإني سأَروي لك بُرهاناً ثابتاً على عطف الله. ما إن تركنا وراءنا منطقة كيلُوسينا حتى أطبقت علينا فجأة كُتلة غيوم كثيفة، وانقلبت صفحة السماء الصّافية الى ظُلمةٍ كالحة، وهبّت ريحٌ باردة ما بين الغيوم وتساقطت على أجسامنا كندىً مبلّلة، مؤذنة بهاطلٍ لا سابقَ له. الى يميننا رعود متواصلة تقصف، ووميض بروق ساطعة ومتواصلة يسبق الصّاعقة؛ جميع الجبال، من ورائنا وامامنا ومن جِهتينَا، تُغلّفها الغيوم. ها هي ذي، تقع جميعها الى جانب الطريق، وتفصلها بعضها عن بعضٍ مسافاتٌ صغيرة. وكانت هذه الطريق، بسبب تعاقب المساكن، حافلةً بالناس، أقبل بعضهم لاستقبالنا، وأحاط بنا البعض الآخر يمتزج فرحهم بدموعهم الغزيرة. رذاذٌ خفيف، قليل الازعاج، كان يرطّب الجوّ، ولكن قُبيل وصولنا الى مدينتنَا الصغيرة سال الغيمُ الذي فوقنا همرةً أشدّ غزارة؛ وهكذا كان دخولنا في هدوء وسكينة اذ لم يَدرِ أحدٌ بمجيئنا. ولكن ما ان دخلنا الرّواق، والعربةُ تدوّي على أرضٍ جافّة، حتى فوجئنا، لا أدري من أين ولا كيف، بجمهورٍ غفير من الناس، مُتراصّ الحشد، يطوّقنا بحيثُ امتنع علينا النّزولُ من العربة، اذ لم نجد حوالينا مكاناً خالياً من البشر. كان من العسير حدّاً أن نُقنعهم بإفساح المجال امامنا للنزول، وأمام البَغلين للمرور، وكنّا نتقدّم في زحمةٍ شديدة من الناس كاد فيضُ محبّتهم يُفضي بنا الى الإغماء. وما إن وصلنا الى داخل الرّواق المحيط بالساحة حتى شاهدنا نهراً من النار ينهمر نحو الكنيسة: مَصَفُّ العذارى، في أيديهنّ مشاعل الشمع، يتقدّم، في صفٍّ منتظم، نحو مدخل الكنيسة، ونور المشاعل ينير الوجوه. دخلتُ وسُررتُ وبكيتُ مع الشعب – كان باستطاعتي أن أجمع في وقتٍ واحد، هاتين العاطفتين، وأنا أرى جمهور الشعب أمامي -، وما إن خُتمت الصلوات حتى قمتُ بكتابة هذه الرسالة الى قداستك في أسرع وقتٍ ممكن بسبب حاجتي الملحّة، بعد الرسالة، الى الاهتمام بجسدي.

الرسالة الســـابعة

الى الحاكم هياريوس

لدينا قانون يقضي بأن نبكي مع الباكين ونفرح مع الفرحين، ولكن يبدو لي أنَّ واحداً من هذين الأمرين مُطبَّقٌ عندنا دون الآخر. شديدةٌ نَدرةُ النّاعمين باليُسر الى حدِّ أنه من الصَّعب أن تجدَ مَن تستطيع مشاركته في الخيرات، فيما تنعم الفئة الأخرى المعاكسة بخصبٍ شديد. أفتتح كلامي بهذه المقدّمة بسبب المأساة التاعسة التي قدّمها على مسرح الحياة شيطانٌ لئيم بأشخاص كانوا أبداً شُرفاءَ مُحترمين. شابٌ من سلالة كريمة، اسمه سيناسيوس، له مع أسرتي نسب، في زهرة العمر، أحاطت به الأخطار الشديدة ولمَّا ينعَم عملياً بالحياة بعد. إنقاذهُ بيد الله، وبعدَهُ بيدك أنت الذي وُكل إليه سلطان الحياة والموت. لقد وقع أمر يؤسفُ له عن غير قصد – ومن يقصد أمراً مُنكراً بملء إرادته؟ والآن فالذين أقامُوا عليه هذه الدعوى التي تهدّد حياته جعلوا من هذا الأمر المؤسف رأس الاتّهام. إنّي سأعمل على توجيه رسالة خاصّة الى هؤلاء الأشخاص، محاولاً إقناعهم بالتخلّي عن الثأر؛ ولكن في ما يتعلّق بعطفك، فإني أرجوه أن يكون مع ما هو سديد ومعنا نحن، فيتغلّب الفضلُ على تَعس هذا الشاب، ويجد وسيلةً تُنقذهُ من الخطر، فيُخزى الشيطان الشرّير الذي يقاومهُ بفضل اهتمامك وعنايتك. لقد أفضيتُ إليك بإيجاز بكلّ ما أرجوه؛ أمَّا الإيحاء المفصَّل بطريقة معالجة هذه القضيّة فليس لي أن أقوله، وليس لك أن تُطلَعَ عليه.

الرسالة الثامنة

الى الحاكم أنطيوخيانُس

الى الذي يحمل الحكماء على شدّة الإعجاب بملك المقدونيّين – انهم أقلّ إعجاباً به لانتصاراته على المادّيين، ولأحاديثه عن الهند والأقاليم القريبة من الأوقيانس، من إعجابهم به لقوله ان أصدقاءه هم كنزُهُ – الى هذا أدّعي أنا أيضاً التعالي بدوري الى مستوى ما يُعجب فيه وانه لمن الأحقّ أن أخاطب نفسي بمثل هذا الكلام، لأنني في الحقيقة غنيٌّ بالصداقات، وبمثل هذا الغنى قد أتفوَّق على مَن كان يفخر بذلك.

فمن كان له صديقٌ بالقدر الذي كنتَه لي، أنت الذي تقاوم نفسك بكلّ نوع من أنواع الفضيلة؟ لا أحد يستطيع أن يتّهمني بالمصانعة من شأن الشعر الأبيض، والشيخوخة غير صالحة للمُمالقة. ولو كنت في سنّ الممالقة وتوجهتُ إليك بالمديح لما وقع المديح في غير موقعه لأنّ سيرتك، قبل كلّ كلام، تبدي استحقاقك للمديح, وإذ كان من خواصّ المُثرين ان يعرفوا كيف يحسنون استخدام ما يملكون، وإذ كان أفضل استعمال للخيرات الحاضرة هو أن يُقدم للأصدقاء ما يملك على أنه خيرٌ مُشترك، وإذ كان ابني إسكندر المحبوب جداً صديقاً لي ومتعلقاً بي أكثر من أي شخص آخر تعلّقَ أمانةٍ كاملةٍ، أرجو ان تسمح لي بأن أريهُ كنزي، لا أن أُريه فقط، بل أن أقدِّمه له بسخاء لكي يستعمله مُفيداً من حمايتك في الأمور التي كانت سبباً لمجيئه، لأنه بحاجة الى معونتك. انه يحدّثك هو بنفسه عن قضيّة كلّها؛ وهكذا يكون الأمر أوفق من ان أعرضه بالتفصيل في رسالة.

الرسالة التاسعة

الى ستاجيريوس

يُقال إن الممثلّين على المسارح يُحيون مشهداً على الطّريقة التّالية: يختارون موضوعاً لمشهدهم أسطورةً مُقتبسةً من التاريخ أو من إحدى الروايات القديمة، وبألاعيبهم يروون القصّة للحاضرين. هكذا يَروون سلسلة الأحداث: بعد ارتدائهم بالثّياب والأقنعة، وبعد إنشائهم على المسرح، بالستائر والجداريّات، مشهداً يشبه المدينة، يمثّلون على ذلك المسرح تمثيلاتٍ حيّة للأحداث تأخذ بعيون الحاضّرين وعقولهم وكأنهم هم وجداريّاتهم وأحداثهم المدينة الحقيقة والواقع. الى أين ماضٍ في عرضي هذا؟ بما أنّنا بحاجة الى أن نبيّن للمجتمعين هناك أن ما ليس بمدينة هو في الحقيقة مدينة، أرجوك أن تصبح بالصُّدفة أحدَ سكّان هذه المدينة، وأن تبعث بحضورك في هذا المكان المُفقر ما يوهم بأنه مدينة. المسافة ليست طويلة والحظوة التي توّفرها لنا عظيمة جداّ. إننا نريد أن نَظهرَ للمجتمعين بدرجةٍ أعلى من الأّبّهة عندما نزدانُ بحضورِكَ دون سائر الزّينات.

الرسالة العاشرة

الى أوتر ليوس أسقف مَلِيتينس

كزهرةٍ في الربيع، كتغريدِ عنادِلَ، كبحرٍ ساجٍ تُلامسهُ رياحٌ ليّنة، كحقلٍ مؤنقٍ في نظر حارثيه، سواءٌ برعمت فيه الحياةُ الخضراء أو تموَّج بالسَّنابل الصَّفراء، كمُتعةٍ يبعثُها في النفس منظر كرمةٍ شديدة الحمل معروشةٍ تُظلِّل أغصانها بأوراقها، هكذا أنار ربيعُك الروحيّ بأنواره الهادئة، حياتنا، وطرد الظِّلَّ بالضّياءَ المُنبعثِ من رسالتك. قد تكون من الملائم أن نقول، في شأن الخيرات الحاضرةِ، ما قاله النبيّ الذي رأى أن هنالك تعادُلاً ما بين الآلام الكثيرة التي في قلوبنا والتعزيات التي تأتينا من الله، بفضل صلاحك، وتُبهجُ نفسَنا وتبعث فيها الدّفءَ والحرارة بعدما آذاها الجليد.

تساوتِ الشِدّة في حالي المكارهِ، وعذوبةِ إنعامك. واذا كان بخبر مجيئك السارّ بعثتَ في نفوسنا هذا الابتهاج العظيم الذي نقَلَنا من الألم المبّرح الى حالةٍ من الصَّفاءِ المُريح، فكيف بالحري يكون ظهورك في ما بيننا، وحضورك الغالي عندنا؟ أيّ تعزية ستكون لنفوسنا عندما يتردّد في آذاننا صوتك العذب! عسى ان يكون ذلك قريباً بمعونة الله الذي يُحيي أرواح المتواضعين ويهدئ قلوب المُنسحقين. اعلم أننا اذا نظرنا الى حالنا نالنا ألم شديد ممّا نحن فيه الآن ومما سنكون عليه في ما بعد؛ ولكن عندما ننظر الى سيادتك نحمد عناية الربّ وتدبيرها لكوننا على مقربة منك،

وبإمكاننا الإفادة من أخلاقك الحلوة، والامتلاء من غذاءٍ كهذا الغذاء، اذا كان من الممكن الشِّبَع من مثل هذه الخيرات.

الرسالة الحادية عشرة

الى الأديب أوباطريوس

فيما كنتُ أبحث عن مقدّمةٍ لرسالتي في ما هو مُبتكر وموافق ممّا درجتُ عليه أي من قراءاتي للكتاب المقدّس، رحتُ أتساءَل عما يكون لذلك من فائدة، لا أني لم أقع على شيء ملائم، بل لأني رأيتُ من غير المُناسب أن أكتب في مثل هذه الأمور لمن لا يعرفونها. إنّ الإكباب من قِبَلنا على الثقافات الدُّنيويّة هو دليل على عدم اهتمامنا بالعلوم الإلهية. سأدعُ هذه وأستخرج ممّا لك مقدّمة لرسالتي الى حكمتك.

إن أبا حضارتكم تخيَّ شخصاً يبتهج في شيخوخته عندما يشاهد، بعد أعذبةٍ طويلةٍ، ابنه الخاص وحفيده. وسبب ابتهاجه هو التّنافس القائم بين أوليس وتلماخس لبلوغ الهدف. ما الفائدة والهدف من ذكر هؤلاء في مطلع خطابي هذا؟ ذلك أنكما انت وأباك الرّائع في كل حال، عندما جعلتماني بينكما كما جُعل لايرِتس، وحينما تتنافسان، لنيل الجائزة، بما أبديتما من تقديرٍ ومحبةٍ لنا، مُواليين الرسائل إلينا، الواحد من البنطس والآخر من كبّادوكية. وماذا أعمل أنا العجوز؟ إني أتتبَّع سعيداً اليوم الذي أرى فيه مثلَ هذا التنافُس بين الابن وأبيه. عساك لا تتوقف أبداً عن تحقيق أمنيّة أبٍ فريدٍ ورائع، وعن أن تتفوَّقَ على المجد الأبويّ بأعمالٍ أروع وأسمى. هكذا أكون الحكم السَّعيد ما بينكما، فأنيلك جائزةَ التفوّق على أبيك، ثم أُنيل أباك جائزة التفوُّق عليك. أما نحن فسنتحمّل قسوة إيثاكي، التي لم تصبح هكذا بالحجارة بل بأخلاق سكّانها، وقد كثُر الخطّيبة ويعرّضون قداسة الزواج للانتهاك، سالكين سلوكاً يوافق، على ما اعتقد، سلوك ميلانتو، أو أيّ امرأةٍ أُخرى مشابهة لها، ولكن ليس هنالك من يردعهم بقوسه! ترى كم هذينا، في شيخوختنا، في موضوعات ا=لا تتلاءَم وما نحن فيه؛ وعلى شعري الأبيض أن يحصل لي على صفحٍ سهل! من نكبات التقدّم في السنّ أن تضعف العينان وسائر الأعضاء، وأن نتكلّم في لا شيء. أمّا أنت، فبسرعة رسائلك وحيويّتها وما فيها من تقدير وتكريم، تُجدّد ما كادت السنون تذهب به؛ وترمّم ما صدّعته فيّ الأيّام بهذه المعاملة الجميلة التي تلائم الشّيخوخة.

الرسالة الثانية عشرة

الى الشخص نفسه

إنّ زهوة الربيعِ وطبيعتهِ لا تتلألأ فجأةً بل انها تُمهّد لهذا الفصل؛ هذا شُعاعٌ يبعث الدفءَ بهدوءٍ في جليد الأرض، هذه زهرة تظهر نصفَ مختبئةٍ وراءَ تَلعةٍ، أنسامٌ تجري على الأرض لكي تتغلغل في اعماقها طاقةُ الهواء المُخصِبة والمُحيية. هنالك أيضاً العشبُ الجديد، والطيور التي هجّرها الشتاء، وأمور أخرى مشابهة هي بشائر الربيع أكثر ممّا هي الرّبيع نفسه؛ إنها هي أيضاً مُمتعة لأنها مقدّمة لما هو الأَشدُّ إمتاعاً. ما معنى خطابي هذا؟

بما أن مقدّمة الكنوز التي فيك كانت في قدومك إلينا برسالة تُبشّرنا في مطلعها الجميل، بما يمكننا انتصاره منك، فإننا نتقبّل عواطفك الطيّبة التي تظهر كإحدى أزهار الربع الأولى، آملين ان ننعم قريباً بكل الموسم الجميل الذي فيك. واعلم أننا تحمّلنا بصعوبةٍ قسوةَ الصَّقيع وقسوة الأخلاق في هذا البلد. وكما أن الجليد يتسمّك على السطوح كلما جرى عليه الماء – اتّخذ مثالاً من الحال التي نحن فيها – وكلما سالت عليه الرطوبة وانتشرت عليه وتحجّرت حواليه وزادت في حجمه، كذلك أرى شيئاً مثيلاً فيما يتعلّق بالأخلاق عند أغلب من يسكنون هذا المكان. إنّهم أبداً يفكّرون في الشرّ ويسعون وراءَه، والى السُّوءِ الذي يأتون به يُضاف آخر، وآخر، وآخر بلا انقطاع. ليس في نظرهم حدٌّ للحقد والإغراق في الرذائل، بحيث اننّا بحاجة الى كثيرٍ من الصلاة لكي ينفحنا الروح بنعمته فتُذيب قسوة الحقد، وتحطِم جليدَ السُّوء المتجمّد فيهم. ولهذا فالرَّبيع الذي هو بطبيعته ممُتع، يصبح أكثر إمتاعاً عند الذين ينتظرونك بعد مثل هذا الشتاء. فلا تتأخرَّ النعمة، ولا سيّما وان النهار المقدّس يقترب، فمن الأولى ان يُكرِمَ الوطنَ أبناؤهُ من ان يُكرم أبناؤنا البنطس. تعالَ أيّها الصَّديق العزيز حاملاً معك الخيرَ؛ فأنك أنتَ ملءُ الخير والبركة في ما بيننا.

الرسالة الثالثة عشرة

الى ليبانيوس

سمعتُ خبيراً في الطبّ يروي حدثاً عجيباً من احداثِ الطبيعة، وهذه كانت روايُته. قال: كان رجلٌ تحت وطأة مرضٍ عضال من أصعبِ الأمراض الشفاءُ منه، وكان ينعى على فنّ الطبّ كونه أقلّ فعلاً ممّا كان يُنتظر منه، لأنّ كل ما بُذل له من عناية كان بلا فائدة. وفي ما هو على هذه الحال اتته، على غير انتظار منه، أخبارٌ سارّة، فكان من ذلك أن شُفي المريض من غير تطبيب، فإمَّا أنَّ نفسَهُ، بزيادة انشراحها، حوّلت حال جسده الى ما كان يرجوه، وإمّا أن يكون هنالك سببٌ آخر لا اعرفهُ: ليس لي من الفراغ ما يُتيح لي التفكير في مثل هذه المور، والذي نقل إليَّ الخبر لم

يوضح السبب. وأعتقد أنّ تذكّري لهذا الخبر الآن لم يكُن عن عبث. فقد كنتُ في حالة تمنّيتُ أن لا أكونَ فيها – ليس من الضروريّ الآن أن أُعدِّد بدّقةٍ أسباب المتاعب التي عانيتُها منذ كنتُ بالقرب منك، وما زلتُ أُعانيها حتى الآن – وفجأةً جاءني أحدهم بخبر رسالةٍ آتية من ثقافتك التي لا تُضاهى. وما إن تسلّمتُ الرسالة ووقفتُ على محتواها حتى شعرتُ بأنّني كَمَن يتهافت عليه الناس ليُهنّئوه بالمآتي الجِسَام التي أنجزها – ذلك لما علّقتُ من الأَهميّة على الشهادة التي آثرتنا بها في رسالتك. وكذلك حال جسمي التي تحسَّنت في الحال؛ وأنا أيضاً أستطيع أن أروي لك الخبر الغريب نفسه، إذ إنني قرأتُ قسماً من الرسالة وأنا بعدُ مريض، وقرأتُ قسماً آخر وأنا جدُّ مُعافىً.

ولنقف عند هذا الحدّ في الموضوع. وبما أن ولدنا سيناجيوس كان لنا مِرسالَ هذه النعمة فإنّك أنت، بما لك من ميل فريد الى الخير، تستطيع ان تكون داعية خيرٍ لا لنا فقط بل للمحسنين إلينا أيضاً؛ والحال أن هذا الشخص كان محسناً إلينا، كما قيل، لأنّه كان وسيلةً لنقل رسالتك إلينا، ولهذا فهو جدير بالمكافأة.

أمّا بالنسبة الى معلّمينا فاذا كنت تريد أن تعرف على يد من حصلنا على بعض المعرفة، فما عليك إلاّ أن تطلب ذلك عند بولس ويوحنا وسائر الرُّسل والأَنبياء، ما لم يكن من الجسارة منّا ان ندَّعى الأخذ عن مثل هؤلاء الأشخاص. ولكن إذا كنت تتكلّم عن حكمتكم التي يقول العارفون انها تنسكبُ منك الى جميع من لهم نصيب في البلاغة – فقد سمعتُ ذلك من تلميذك، ابي ومعلّمي، باسيليوس العجيب، الذي كان يعلنهُ للجميع – فاعلم انه ليس لي شيءٌ بارز اذكره في سلسلة معلّميّ. في مدّة وجيزة كنتُ تلميذاً لأخي بكلمته الإلهيّة، ولكني كنت غير مصقول الذهن حتى أستطيع الاعتراف بالخسارة التي يخسرها أولئك الذين لم يتلقَّنوا البلاغة. ثم إنّي قضيتُ الوقت، عندما أُتيح لي ذلك، في مطالعة آثارك برغبة شديدة، فأُغرمتُ بروعة بيانك، والى الآن لم أفقد هذا الغرام. فلو كانت طاقاتُنا، في نظري، باطلة لما كان لنا أيّ معلّم في أيّ مكان. وإذ كان من غير المسموح به أن نخالفك في الرأي الذي رأيته فينا ونعدَّه غير صحيح، وأنت الخبير في البلاغة ونحن على غير جهلٍ بها – في نظرك على الأقلّ – فاسمح لنا أن نتجرّأ ونُرجع إليك مصدرَ طاقاتنا؛ فلئن كان باسيليوس هو الذي لقّننا البلاغة فإنّ غِناه صادر عن كنوزك؛ لقد نهلنا من خيراتك وإن عن غير طريقك. ولئن كان ذلك شيئاً زهيداً، فزهيد أيضاً الماء في الجِرار، ولكنّه يأتي من نهر النيل.

الرسالة الرّ لبعة عشرة

الى ليبانيوس السُّفسطائيّ

من عادة الرومان، جرياً على تقليد قديم، أن يحتفلوا بعيد الانقلاب الشتويّ عندما ترتفع الشمس نحو المناطق العُليا ويأخذُ قياسُ النهارُ في الطّول. يُعدُّ بدءُ هذا الشهر لديهم مقدَّساً، وإذ يجعلون فيه فألهم للعام كلّه، يعكفون على الزيارات، وحفلات الأَفراح، ومكاسب التيمُّن.

إلامَ أرمي في افتتاح رسالتي هذه؟ أرمي الى أني أنا أيضاً قضيتُ هذا العيد بالطريقة نفسها وفي جعبتي ذهب. في هذه اللحظة تقبض يدي على الذهب، لا ذلك الذَّهب العادي الذي يستهوي الحكام، ويقدّمه أصحابه هدايا، هذه المادّة الثقيلة، المُخزية التي لا حياة فيها، ولكن ما هو، في نظر من وُهبوا بعد الذكاء، أرفع من كل غِنىً، ما هو في الحقيقة أجمل هدية في نظر بنذارس، أعني رسالتك وما فيها من غِنىً عظيم. لقد جرى ذلك يومَ كنتُ في زيارة لعاصمة كبادوكية، إذ صادفتُ أحد الأصفياء وقدّم لي هذه الهبة، الرسالة، كشارة عيد. وفي شدّة فرحي جعلتُ من هذا المكسب ملكاً عامّاً لجميع الحاضرين؛ فكانوا جميعهم فيه مشتركين، وكان كل واحدٍ يُنافس الآخر للحصول على الكل، ولم أكن أنا بذلك مغبوبً. وبانتقال الرسالة الى أيدي الجميع أصبحت ثروةَ كلَّ واحدٍ منهم الخاصّة، وكان بعضهم يحفرون نصّها في ذاكرتهم بتكرار قراءَته، وبعضهم على الواح، وعندما عادت الى يديَّ زادتني ابتهاجاً أكثر ممّا يُبهج المعدنُ عيونَ عاشقي الذَّهب. وكما أن الفلاَّحين – استعمل مثلاً ممّا هو مألوفٌ لديَّ – يستفيدون من ثمرة أتعابهم السّابقة لينهضوا بأعباء جديدة، كذلك نرجو، مع طلب المعذرة، ان تسمح لنا، بعدما بذرنا ما قدّمه لنا، ان تُعاودك بالكتابة لكي نحملك على تكرار الكتابة إلينا.

من جهة أُخرى، أطلب اليك، باسم الأحياء، أن لا تعود الى التفكير في ما ألمحتَ اليه في ختام رسالتك. أقول ان القرار الذي اتّخذته غير جيّد، وذلك عندما يُخطئ البعض ويستعيضوا عن اللغة اليونانيّة باللغة البربريّة، بانخراطهم في جنديّةٍ مرتزقة، وإيثارهم أجر الجنديّة على مجد الكلمة الجميلة. فترى انه قُضي على البلاغة وان الحياة ستفقد الكلمة. مَن يُسمع صوتاً اذا أنت نفَّذت هذا التهديد الرهيب للبلاغة؟ قد يكون من المفيد أن أورد مقطعاً من كتابنا المقدّس: ان اللوغس لدينا يأمر من يستطيعون عمل الخير بأن لا ينظروا الى استعدادات من يُحسنون إليهم – فيكونوا رحماء لمن خلُصت عواطفهم، ويعدلوا عن ناكري الجميل – بل أن يقتدوا بموزّع كل شيء، الذي يجعل خيرات الخليقة شائعةً بين الناس سواء كانوا صالحين أو غير صالحين. وانطلاقاً من ذلك، أيها الصَّديق الكريم، واصل مسيرة حياتك كما برزت في السابق. الذين لا يرون الشمس لا يمنعون وجود الشمس؛ ثمّ أليس من المؤسف أن يختفي بريق بلاغتك بسبب من أغلقوا حواسّ نفسهم.

أرجو أن يظلَّ سيناجيوس بعيداً عن المرض الشائع الذي فتك بالشبّان، ويُكبّ بكل رضىً على درس البلاغة. وان تلكّأ وجب اضطرارُه وإرغامهُ على ذلك، لأن الذين تنكّبوا اليوم عن البلاغة قبله كانوا فاشلين حقيرين يلازمهم الخزي والعار.

الرسالة الخامسة عشرة

الى يوحنا والى مكسيميانُس

إننا نحن الكبادوكيّين محرومون من شتّى الأمور التي تُسعد من يملكونها، ولا سيّما الكتابة والنَّسخ. هذا هو سببُ تأخرُّ ظهور كتابي، فإنني منذ أمد بعيد أهيتُ الردّ على البدعة، ولم يكن لديّ ناسخ، وقد يُفسّر هذا النقص بأنه إهمال من قِبَلنا أو عجزٌ عن الردّ. ولكن الآن، وقد وُجد، بنعمة الله، الناسخُ وقارئُ النص المدقِّق في صحّة نسخه، ارسلتُ اليكما التاب لا هبةً منّي، كما يقول ايسوكراتِس – إذ لا أرى فيه من الميزات ما يجعله ذا قيمة كبيرة – ولكن لكي يكون لكما حافزاً، وانتما في كامل نشاط الشباب، على مناهضة الخصوم، فتستيقظ فيكما جرأة الشباب بدافع حميّة شيخ عجوز. وإذا كان فيه ما يَحسُن في اذن السُّفسطائي، فاختاروا له منه بعض المقاطع، ولا سيّما تلك التي تسبق النقاش وتمتاز بأسلوبها، وقدّماها له. هنالك أيضاً مقاطع من القسم اللاهوتي قد تبدو له غير خالية من الرّوعة. ولكن اعلموا ان ما تقرؤونه إنّما تقرؤونه لأستاذ لامع وخبير.

الرسالة السادسة عشرة

الى استر ليجيوس

كما يفعل لاعبوا الطّابة عندما يقفون على شكلِ مُثلَّثٍ ويتداولونها تناوباً بقذفها من الواحد الى الآخر بحذق – فيخدعون مَن، في الوسط، يثب إليها؛ ويتظاهرون، بالحركة التي يُبدونها بشخصهم أو بيدهم، أنهم يقذفونها الى اليمين، والى الشمال، في الجهة التي يرونه مندفعاً إليها، ثم يقذفونها الى الجهة المعاكسة، ويُخفون بهذه الحيلة حركة اتّجاهها – هكذا يسلك أيضاً الآن أكثرُنا؛ ندع الرصانة جانباً، ونلعب بالطّابة بحذقٍ مع الناس، خادعين نفوسَ من وضعوا ثقتهم فينا بأعمال غير مستقيمة، بخلاف ما نعدهم به من صالح الرجاء. رسائل مصالحة، عواطف صداقة، علامات عرفان للجميل، هدايا، معانقات حارّة بالمراسلة، تلك هي الحركات الخادعة المتجليّة في تحرُّك الطابة الى اليمين؛ ولكن بدلاً من العطف المُنتظر، الاتهاماتُ، والشكوك، والافتراءات، والملامات،

والشكاوى، والدّعاءات المنحازة والكاذبة. طوبى لكم في استطاعتكم الرجاء، أنتم القائمين على الثقة الكاملة بالله. ومع ذلك فنحن نحرّضكم على ألاّ تنظروا الى حالنا، بل الى تعليم الإنجيل – ومن يستطيع أن يكون للغير عزاءً في آلامه، إذا كانت الآلام تستبدّ به؟ - حتّى تستقيم الأمور على حدّ ما قيل: ((لي الانتقام، أنا أُجازي يقول الرب)) أما أنت فاعمل بما يليق بك، اجعل الله رجاءَك، ولا يَصرفكَ عن استقامتك وصلاحِك ما يُؤخذُ علينا، ولكن دع لله، الدّيّان العادل، الحلّ الملائم لهذه الأمور، وسِر في الطريق التي تخطّها لك الحكمة الإلهيّة. في الحقيقة لم يتألّم يوسف من حسد إخوته، لأن شرّ ذويه كان له الطريق الى الملك.

الرسالة السابعة عشرة

الى كهنة نيقوميدية

عسى أن يوافيكم ((أبو المراحم وإله كل تعزية)) بنعمته، هو الذي صنع كل شيء بحكمة للمنفعة العامّة، ويعزّيكم ((مُجرياً فيكم ما حَسُنَ لديه))، وأن تكون معكم نعمة ربنا يسوع المسيح وشركة الروح القدس فتكونا لكم دواءً لكل ضيقة وشدّة، وسبيلاً الى كل خير، لأجل كمال الكنيسة، وبنيان نفوسكم، والإفاضة في تمجيد اسمه تعالى.

بالنسبة إلينا نُقدم لمحبّتكم هذا الدفاع الذي يبرّر موقفنا: لم نتوانَ عن القيام بواجبنا الرّاعوي الذي أُلقي إلينا بالنسبة إليكم، سواءٌ كان في الماضي أو في الحاضر، بعد وفاة الطوباوي باتريسيوس. ولكن الأعمال الكثيرة التي تتراكم علينا في كنائسنا، والضعف الشّديد الذي يَعتور جسدنا - انه يشتدّ بازدياد عدد السنين – والإهمال الشديد الذي يُظهره صلاحكم بالنسبة إلينا: لم نتلقَّ منكم قطُّ كلمة أو رسالة تدعوننا فيها إليكم، ولم تبدُ منكم أيّ إشارة صداقة موجّهة الى كنيستنا، فيما كان الطوباوي الأسقف أوفراسيوس قد جمع بإخلاص ما بينه وبين صغارتنا وبينكم بسلاسل – بالمحبّة. ولكن وإن لم يتحقّق في ما مضى واجب المحبّة، سواء كان من جهتنا بزيارة أو من جهتكم بإغفال دعوتنا، فأننا نسأل الله، ضامّين صلاتكم الى رغبتنا، أن نتمكن في أقرب وقت من زيارتكم لكي يُنشّط بعضُنا بعضاً، ونظهر اهتمامنا بعضنا للبعض الآخر، بحسب ما يوحي به الرب، بحيث نجد سبيل التعويض عما سبق ممّا كان مشقّة، والضمانة لمستقبل خالٍ من كل ضباب. وهكذا بعد تحرُّرنا من الخلاف الذي يفرّقنا ويُبعد فريقاً عن الكنيسة من هنا، وفريقاً آخر من هناك، تتفلّون من أشراك إبليس وتهكمه، هو الذي تقوم ارادته وعمله، بخلاف إرادة الله، على ان لا يخلص جميع الناس ويبلغوا الى معرفة الحق. فتأمّلوا أيها الأخوة كم نالنا من المشقّة عندما بَلَغنا أن الحالة عندكم لم تتبدّل، وان الموقف الذي وقفه المنشقّون لا يزال على حاله. وكما أنّ الماء كثيراً ما يفيض من مجراه على الضفّة المُتاخمة، وينتشر ويمتدّ هنا وهناك، وأنه إذا لم يُصلح مسربُ ذلك الماء يكون من الصعب ردّه الى مجراه بعدما خدّ اندفاعُه الأرض، كذلك يكون اندفاع المنشقّين، فإذا فاض بدافع

الخصومة والشجار، وانحرف عن الإيمان الصحيح والمستقيم يحفر له بالمثابرة أخدوداً يصعب معه الرجوع الى النعمة الأولى. لهذا تحتاج الحال عندكم الى مدبّر حكيم وقويّ يعرف كيف يعالج مثل هذه الانحرافات ويعيد التيّارات الهوجاء الى جمالها الأوّل، فتعود حقول التقوى الى نضجها يرويها جدول السلام.

فلا بُدّ لكم جميعاً والحالة هذه من غيرة شديدة وحميّة متّقدة حتى يختار الروح القدس راعياً لا تتطلَّع عيناه إلاّ الى أمور الله، ولا يلتفت نظره الى أي شيء مما يستهوي أبناءَ هذه الحياة. لهذا، في رأيي، كانت شريعة اللاويّين تحرم اللاوي من الميراث الأرضيّ: حتى لا يَكون له نصيب، على حدّ ما كُتب، إلاّ الله، ويُحافظ على هذا النَّصيب أبداً، فلا تميل نفسه الى أيّ شيء ماديّ. إذا كان هنالك غير مُبالين، أو كنا نحن كذلك فلا يضطرب أحدٌ في سلوكه بسبب ذلك: ما يفعله البعض ممّا لا يليق لا يُتيح للآخرين ان يسلكوا سلوكاً غير لائق. عليكم أنتم، بخلاف ذلك، ان تسلكوا سلوكاً يساعد الكنيسة على التطوُّر نحو الأفضل بعودة المشتّتين الى اتّساق الجسد الواحد، وعودة الروح القدس الى التوهُّج في جمهور من يمجّدون الله بقوى. لأجل ذلك أرى من الجدير بكم أن تتوجّهوا الى شخص يريد صالح الكنيسة، بحيث يكون المُنتخبُ قادراً على إدارتها. أن يُطلب ما بين صفات الأسقف الأصل، والغنى، والجاه، ليس ذلك ما يطلبه الرَّسول. إذا كانت إحدى هذه الصّفات تُلازم طبيعياً من يتولَّون مناصب الإدارة، وتكون كالظلّ الذي يُرافق الحقيقة، فنحن لا نتأبّاها؛ ولكن إذا كان المرُ غيرَ ذلك فان تقديرنا يكون لما هو أغلى قيمةً وان لم ترافقه الصفات السابقة. النبي عاموس كان راعي ماعز، وبطرس صيّاد سمك، وكذلك أندراوس أخوه، وكذلك يوحنا السامي القدر. بولس كان صانع خيام، ومتى عشّاراً، ولم يكن الباقون قناصل، ولا قُوَّاداً، ولا حكّاماً، أو أشخاصاً عُرفوا بالبلاغة أو الفلسفة، بل كانوا بؤساء، جهّالاً، ومن أصل وضيع. ومع ذلك ((فقد ذاع صوتُهم في جميع الأرض، وكلامُهم الى أقاصي المسكونة)). قال الرسول: ((انظروا أيها الإخوة الى المدعوّين فيكم، فليس كثيرون حُكماء بحسب الجسد، ولا كثيرون أقوياءَ، ولا كثيرون شُرفاءَ، انّما اختار اللهُ ما هو جاهل)). قد يكون اليوم أيضاً في نظر الناس من الجهل والحقارة أن يفقد الإنسانُ رصيدهُ وأن يكون الفقر وضعة الأصل في أساس بؤسه. ومن يدري، قد يكون هذا هو الذي تُفرغ عليه النعمةُ قرنَ الزّيت المقدّس، وإن كان دون العظماء والوجهاء قيمةً اجتماعيّة؟ ما كان الأفضل لمدينة رومة في البدء: أن تتّخذ لادارتها أحد الأشراف والنُّبلاء المتعجرفين من مجلس الشيوخ أو الصيّاد بطرس، الذي لم يكن له شيء من هذا العالم يجلب له الشهرة؟ ما كان مسكنه؟ من كان خدّامه؟ أيّ الأملاك كانت مداخيلُها في أساس ترفه ورفاهيته؟ وهذا الغريب المحروم من السَّقف والمائدة كان أشدَّ غنيٍ من الذين يملكون كل شيء، لأنه بفقدانه كل شيء كان يملك الله بكامله. وكما أن سكّان ما بين النهرين، الذين كانوا جماعة بَذخ وغنى، اختاروا توما لقيادتهم، والكريتيّين تيطس، وسكّان أورشليم يعقوب، ونحن سكان كبادوكية قائد المئة الذي اعترف، في أثناء الآلام، بألوهة الربّ – يوم كان فيهم شرفاء كثيرون، وساسة خيل، ومتقدّمون أُوثروا على الهارج العالميّة. أرى انه يجب عليكم أنتم أيضاً في الحالة الحاضرة أن تنظروا الى هذه الأمثلة، وذلك إذا كنتم ترغبون في إحياء ما كان لكنيستكم من مقام قديم.

أنتم أعرف الناس بتاريخكم: قبل ان تزدهر المدينةُ جارةُ مدينتكم كان كرسيّ الحكم عندكم. ولم يكن بين المدن مدينة تفضلُ مدينتكم؛ واليوم، وإن توارت زخرفة الأبنية، لا تزال مدينتكم بعدد سكّانها بمستوى ما كانت عليه من أبّهة وروعة. فيجدر بكم والحالة هذه أن لا تكون عواطفكم دون مستوى ما لديكم من قِيمَ، بل أن يرتفع اهتمامكم للحالة الحاضرة الى مستوى شهرة المدينة، حتى تجدوا، بمعونة الله، رئيساً للشعب كَفِياً. انه لَمِن المُخجل، أيها الإخوة، وممّا لا معنى له، أن يقود قبطانٌ السفينة وهو لا يعرف فنَّ القيادة، فكيف بالأحرى يمكن الإنسان أن يقبض على سكّان الكنيسة وهو يجهل قيادة نفوس المبحرين معه الى مرفأ الله. كم من كنيسة غرقت بأبنائها بسبب قصور رؤسائها! من يستطيع أن يُحصيَ النكبات التي نبصرها بعيوننا والتي ما كانت لتقع لو كان الرؤساء على شيء من الخبرة في القيادة! مثلٌ آخر: لا يُسلم الحديد الى أناس تنقصهم الخُبرة في صُنع الأدَوات، بل الى أولئك الذين يعرفون فنّ الحدادة. يجب اذن تسليم النفوس أيضاً الى من يعرف تليينها بحرارة الروح القدس، وبأدوات تشكيل روحيّة يستطيع أن يصنع من كل واحد منكم ((إناءً مختاراً)) يَحسُن استعماله. الى هذا التبصُّر بالمور يدعونا الرسول، في رسالته الى تيموثاوس، فيسنّ قوانين لجميع مستمعيه قائلاً إنَّ الأسقف يجب أن يكون بغير مُشتكى. هل تنحصرُ رغبةُ الرُّسول في ان يكون هكذا المنتدبُ للكهنوت دون سواه؟ أيّ فائدة لأن يكون الخير محصوراً في واحد؟ ولكنّ الرسول يعلم أن الأدنى يأتمُّ بالأعلى، وأن فضائل الرئيس تصبح فضائل جميع من يتبعونه، لأن الملِّم يشكّل التلميذَ على شكله. لا يمكن ان يكون من نشأ على فنّ الحدادة أن يمارس فنّ الحائك، ومن تدرّب على الحياكة أن يكون خطيباً أو مهندساً، ولكن ما يراه التلميذ في معلّمه ينتقل إليه. لهذا قيل: ((كل تلميذ إذا اكتملَ يكون مثلَ معلمه)). فماذا إذن أيها الإخوة؟ أمن الممكن أن يصير متواضعاً، ليّنَ الجانب، موزوناً، مترفِّعاً عن المكسب، حكيماً في الأمور الإلهيّة، أليفاً للفضيلة والدّعة في سلوكه، مَن لا يرى هذه الصّفات عند مُعلِّمه؟ لا، لا أدري كيف يصير روحانياً مَن كان تلميذاً لابن دُنيا: كيف لا يكون على صورته مَن تشكّل بشكله.

أيّ فائدة للعِطاش في عظمة البئر إذا خلت من الماء؟ حتى إذا ارتفع مدخلها على أعمدة متّسقة الهندسة، في تنوع أشكالها، فماذا يطلب العطشان ليروي عطشه: أن يُشاهد حجارة حسنة التّنسيق، أو أن يجد ماءً، حتى إذا كان جارياً في مجرى خشبيّ ينسربُ منه سائِل صالح للشرب؟ هكذا، أيها الإخوة، من نظر بعين الاعتبار الى التقوى لم يهتمّ بالظواهر الخارجيّة. حتى إذا كان أحدٌ فخوراً بأصدقائه، ومزهوّاً بقائمة مراتبه، كان دَخلهُ السنويُّ ضخماً، وكان يستعلي بسلالته، ويغرق من جميع النواحي في دُخانِ عجرفته، فيجب اهمالُ مثلِ هذا كما تُهمل البئر الجافّة، إذ انه لا يملك الصّفات الجوهريّة في الحياة. يجب بالأحرى السعي، ما أمكن ذلك، وعلى ضوء مصباح الروح القدس، الى اختيار من هو ((جنةٌ مُقفلة وينبوع مُقفل)). على حدّ قول الكتاب. وهكذا إذ تصبح لنا أطايبُ الجنّة، بالرسامة، في مُتناوَلنا، يتمكّن ماء الينبوع من الجري، وتصبح النعمة التي فيه الملك المشترك للكنيسة كلها. فليمنحكم الربُّ أن تجدوا سريعاً في ما بينكم مثل هذا الرّجل فيكون ((إناءً مختاراً))، ((عمود الحقّ وقاعدته)).

ثقتنا في الربّ أن الأمور ستجري هكذا إذا اجتمعتم على توّخي الخير العام، مقدّمين إرادة سيّدنا يسوع المسيح على إرادتكم الخاصّة، ((ما هو صالح، وما يرضيهِ، وما هو كامل))، حتى يتسنّ لكم النجاح ما يكون لنا سبب فخار، ولكم علّة ابتهاج، ولإله الجميع داعي تمجيد، هو الذي ينبغي له المجد الى الآبد!

الرسالة الثامنة عشرة

الى أوتر ليوس أسقف مَليتينس

كم تكون جميلةً صورُ الأشياءِ الجميلة عندما تحتفظ في ذاتها، وبأمانة، بميزة جمالها الأوّل وشكله! في عذوبة رسالتك وجدتُ صورةً حقيقّية لنفسك الطيّبة التي تمتاز بالجودة، وقد غمرتَنا بالعسل ((من فيض قلبك)) على حدّ قول الإنجيل. ولهذا كنتُ أتصّور أني أراك وجهاً لوجه، وأتمتّع بسعادة وجودك أمام عينيّ من خلال عواطف الصّداقة، التي تنبض بها رسالتُك. عدّة مرّات أعدتُ قراءتها من اوّلها الى آخرها لما وجدتُ فيها من متعة، وكنتُ كل مرّة أجدُني أشدّ شغفاً بقراءتها، ولم يكن لي ارتواء من هذا الشراب، لأن الارتواء لا يمكنه ان يقضي على متعة الأشياء التي هي بطبيعتها جميلة وثمينة. إمكان التطلُّع الدائم الى الشمس لا يُضعف الرغبة فيها، والتمتّع الدائم بالصحّة لا يحدّ الرغبة فيها؛ وفي ما هو من الإفادة من صلاحك، الذي عاينّاه مراراً شخصياً – ولآن بالرسالة – فنحن على اقتناع أنّ ذلك لا يروي عطش رغبتنا. وما يعانيه من كانوا، لسببٍ من السباب، على عطش شديد، نعاينه نحن، فبقدر ما نجمع من خيرك نزداد عطشاً إليه. إذا كنت لا تحمل كلامنا على محمل التزلّف والمبالقة – إنك لن تحملها على هذا المحمل، لنك فوق ما انت عليه، تمتاز بغيرتك علينا وتضحيتك في سبيلنا – فأنك لن تتردّد في تصديق ما أقول: أنّ نعمة رسالتك كانت لعينيَّ دواءً ناجعاً، أوقف جريان دمعها، وإنّا لَننتظر طبّ صلواتك ليعضد نفسنا المتداعية تحت وطأة الشدائد التي تعتروها، وينقذها تماماً من علّتها الشديدة. اننا في حالٍ الآنَ نعمل على تغطية خبرها عن أُذن من يودّنا، وإخفاءِ حقيقتها بالصّمت عنها حتى لا نجرّ أصدقاءنا الذين يُخلصون لنا المودّة الى مشاركتنا في محننا الخاصة. فعندما يعود الى ذاكرتنا أنّنا تركنا أحبّ الناس إلينا لنقع في غمرة النزاعات، وما أُرغمنا على تركهِ هو: أبناء أُهِّلنا لأن نلدهم لله في الآلام الروحيّة، وزوجة قُرِنّا بها بحسب الشريعة وأظهرت لنا حبّها مُتحملة في ذلك المسؤولية في أيّام المحنة، وبيت حافلٌ باللطف، واشقاء، وأهل، وأحبّاء، وأُلاَّف، وأصدقاء، وعيلة، ومائدة، وقلاّية، وفراش قشّ، ومَقعد، ومِسح، وزاوية، وصلاة، ودموع.... ما أعذب هذه الذكريات، ما احبّها لفرط تعُّويدها، لستُ بحاجةٍ الى ان أكتب لك عنها، لأنك على علمٍ بكل شيءٍ! وبدلاً من ذلك – حتى لا يبدو أني أقول أمراً لا يُطاق – تأمّل كم هنالك من اختلاف في الأجواء! وإنّي، وإن بلغتُ آخرَ شوطٍ من حياتي، أعود الى مدرسة الحياة: لا بُدَّ لي من معرفة التنّوع السائد في الخلاق. وقد بدأتُ متأخراً أن أتعلّم الخداع

وفن المخاتلة، وإنّي لأخجل من جهلي وعجزي في هذا الفن، بخلاف ما عليه خصومي في حذق هذه الحكمة، ومقدرتهم على حفظ ما تعلّموه، وعلى اختلاق ما لم يتعلّموه. انهم يشنّون الحربَ عن قرب، ويطلقون السهام عن بُعد، يُجمِّعون الكتائب للحرب، وينصبون الكمائن في تكتم، يتغلّبون بتعاونهم، ويقيمون لهم حصناً حصيناً من مناصريهم.

إله المال قدير لديهم، وليس هنالك من يتغلّب عليه: انه في القدّمة يعمل بيمينه وشماله، تارةً يفرض جزيةً على من خضعوا له، وتارةً يقضي على من كانوا في مُتناول يده.

إذا شئتَ ان تعرف ما هو من شأنِ حياتنا الخاصّة، وجدتَ أموراً أخرى مُشابهة: كوخاً صغيراً خانقاً، يستبدّ فيه البردُ، والظُّلمة، والضيق، وجميع الحسنات التي من هذا النوع، وحياةً يُراقبها الجميع، يراقبون الصوت، والنظر، والمَلبس، وحركة اليد، وانتقال الرِّجل. يَراقبُ كل شيء في غير حياء – هل التنفُّس غير كافٍ، وهل يجري بطريقةٍ منتظمة؛ هل يرافقُ النَفَّسَ أنينٌ، هل الثوب الرهبانيّ منضبط تحت الزنّار، أو هل الزّنار منزوع، هل رداؤُنا المزدوج لا يسقط بدون تجعُّد على الجانبين، أو هل شدّدنا أحد أطرافه عل الكتفين.... جميع هذه المور، حتى إذا لم تكن، تصبحُ حجّةً بيد من يحاربوننا، وبهذا الهدف يجتمعون لمحاربتنا، سواء كانوا أفراداً او مجتمعات أو أدياراً.

وإذ كان من الممكن أن نُحسنَ العملَ أو نسيئه في كل شيء – وكثيراً ما تكون الحياة عند الجميع مزيجاً من أضداد – فإذا كان ما يأتي منك، بنعمة الله، يُساندنا دائماً، فأننّا سنتحمَّل هذه المتاعب الكثيرة آملين في أن يكون لنا أبداً نصيبٌ في مودّتك وعطفك. فلا تنقطع عن إمدادنا بهذه المنّة: إنّك تخفّف بها عِبئنا، وتَكسبُ بها أجرَ الوصايا على أوسع نطاق.

الرسالة التاسعة عشرة

الى شخصٍ اسمهُ يوحنّا في أمور مختلفة تتعلّق بنهج الحياة وسجايا شقيقته الشهيرة ماكرينا

إنّي على علم بأنّ بعض الرَّسَّامين يعملون على تكريم أصدقائهم، وهم من أقبح الناس منظراً، تكريماً زائفاً يُخرجون فيه صورتهم على غير ما يرون. إنهم في نقلهم للصورة يُصحّحون الطبيعة فَيُخفون على اللوحة قبح المنظر بالألوان الزّاهية، ويُبدلون القسمات والأَسارير، بحيث يصبح الصَّديق في صورته المزيَّفة غير الصديق الحقيقيّ. هؤلاء الأَصدقاء لم يُفيدوا خيراً من شعرٍ أشقر كثّ، منعقفٍ على الجبين ولمعٍ حواليه، وشفاه متألقة، وخدودٍ متورّدة، وحواجب مقوّسة، وعيونٍ متلألئة، وأجفان مكحَّلة، وجبهة مشرقة فوق الأجفان، وكل ما هو من هذا القبيل ممّا

يُسهم في الإخراج الجماليّ. فهذا الواقف امام الرسّام ليرسمه إذا لم ينل ذلك كلّه من الطبيعة، كانت محاولته خسراناً وزيفاً: الرسم أظهر الوجه الملّون جميلاً وزاهياً، ولكن وجه الصديق المختلف عن الرسم يفضح الزَّيف والمغالاة في الخدمة. يبدو لي أن المر هو هو إذا راح أحدهم يطري صديقاً ويغمره بالمدائح المُفرطة، ويصفهُ لا على ما هو بل على ما ينبغي أن يكون الإنسان الكامل: انه بكلامه صوّر حياةً مستقيمة، ولكنه بمدائحهِ الزَّائدة انتقد صديقه ممّا مدحه، لأنّ هذا الصديق يختلف في حياته عمّا ورد في الكلام ويَظهر على غير ما قُدِّر. ما معنى كلامي هذا؟ وجدتُ في رسالتك نوعاً من تمثالٍ منحوت بعناية فائقة؛ كان يَحمل اسمي إذ إنّ الرسالة موجّهة إليَّ؛ ولكن بعدما استعرضتُ حياتي بدقّة شديدة، كما في مرآة وجدتُني مختلفاً كل الاختلاف عن الوصف الذي وصفتني به بكلامك، وأدركتُ أنك من جهتك كنتَ تُظهر بذلك أيضاً محبتُك للخير. فبقدر ما كنتَ تراني كذلك أحببتني الى هذا الحد، وأظهرتَ بكل وضوح استقامة طبيعتك، إذ لم يكن لمحبتك من داع سوى الفضيلة، وأنني كنت على حظّ من شيء منها، فقد جَعَلتني في عداد أصدقائك الحقيقيّين. وقد رأيتُ من الفضل ان أعرف صفاتي بنفسي من أن تضلّلني شهاداتُ غيري، حتى ولو كان هؤلاء الغير من أصدق الناس. هذا ما يدعو إليه أيضاً المثَل القائل: يجب على من يعتمدون على شهادة الغير لمعرفة أنفسهم أن يعتمدوا على ذواتهم لمعرفة حقيقة ما هم عليه.

حسبُنا الكلام في هذا الموضع، حتى أبدو، وأنا أعترض على المديح، متهكّماً في شأن الإطراءات. وبما أنك حرّضتني على كتابة بعض الشيء في الموضوع الذي ناقشناه، حتى يكون للجماعة من ذلك فائدة، فاعلم الآن أن أُتيح لنا من الفراغ ما يشبه تقريباً الفراغ الذي تحدّث عنه أحد الأنبياء فقال: هرب إنسانٌ من الأسد ونجا من أنيابه ومخالبه، فوقع على غفلة منه، ومن حيثُ كان يأمل النجاة، أمام دبٍّ كاشرٍ عن أنيابه؛ وعندما نجا من هذا الخطر بعد صراع عنيف، واجهَ، وهو مستلقٍ الى جنب حائط، لدغةَ حيَّة. تلك كانت التابعة منها تُبدي بشدّتها ما سبق منها ضئيلاً. وإذ كان من غير المزعج ان نبادر مَن نُحبّ بقصص مؤلمة، سأعرض لك بإيجاز هذه القصّة.

كانت لنا أخت، موقعها بالنسبة إلينا موقع معلِّمةِ حياةٍ، وموقعُ أُمّ بعد الأُمّ. كان لها أمام الله موقفُ إيمان وثقة لا حدّ لهما، وكان لنا هذا الموقف ((بُرجاً حصيناً))، و((وتُرساً واقيةً))، و((مدينةً محصَّنةً))، على حد قول الكتاب، وكل نوع من أنواع الضمان والأمان، كانت تقيم في أعماق البُنطس، مبتعدةً عن حياة الناس، وحواليها جوقة كبيرة من عذارى ولدتهنَّ بالآلام الروحيّة، وراحت تبذل وسعها في قيادتهنَّ نحو الكمال، فكانت حياتها حياة الملائكة في جسم بشيّ. لم ينسكب كن فرقٌ عندها بين الليل والنهار، بل كان الليل حافلاً بأعمال النُّور، وكان النهار حافلاً بهدوء الصّفاء. كان مسكنها في حركةِ عملٍ دائمة، يتعالى فيه نشيدُ المزامير ليلَ نهارَ. حقيقة يكاد لا يصدّقها حتى مَن يراها: جسمٌ لا يطلبُ ما لهُ، وجوفٌ كما يُظنُّ أنه سيكون يوم القيامة، محرَّرٌ من جميع الميول، دموعٌ تنسكبُ بقدر الماء الذي يُشرب، فمٌ يلهج بالشريعة، أذنٌ صاغية الى أمور الله، يدٌ لا تكف عن الحركة في العمل بالوصايا. كيف يمكن التعبير عن مشهد يتعصّى على الكلام وصفهُ؟

في طريقي من عندكم توقّفتُ في كبادوكية فبلغني خبرٌ عنها أقلقني. المسافة بيننا مسيرةُ عشرة أيّام، وما إن اجتزتُها على ما أمكنني من السُّرعة، حتى كنتُ في البنطس، فرأيتُها ورأتني. ولكن كما يكون المسافر في الظهيرة، وقد جفّفت جسدَهُ الشمس، فينطلق نحو ينبوع الماء، وقبل وصوله الى الماء، وقبل ان يتبلّل لسانهُ، يجد أن الماء انقلب الى تراب وأن الينبوع جفّ في وجهه، كذلك كنتُ أنا، بعد تسع سنوات من الغربة عمّن كنت أُحبّها كأم، ومعلّمة، وكل خير، فقد غادرتُ المكان ولم أخطَ بما كنتُ أصبو إليه، وعُدتُ أدراجي بعد يومين وبعدما قمتُ بدفنها. تلك كانت زيارتي لموطني بعدما رجعتُ من انطاكية.

لم أكن بعد قد هضمتُ مصابي عندما نشر الغلاطيون المقيمون قرب كنيستي عدواهم وبثّوا في السّر وفي عدّة أمكنة وباءَهم الذي لا يُقلعون عنه، أي هرطقاتهم، وأحدثوا حَدَثاً عظيماً لم أستطع الخروج منه بعون الله إلا بعد جهدٍ شديد. وهنالك أمرٌ آخر. إيبورا مدينة واقعة على حدود البنطس؛ وقد ضممناها إلينا والى الإيمان المستقيم منذ أمد بعيد؛ وعندما توفي أسقفها بعث إلينا سكانُها رسلاً يطلبون أن لا ندعها فريسة بين أيدي أعداء يريدون تمزيقها. دموع، سجدات، زفرات، وامور أخرى مشابهة كانت لنا في أصل النوائب الحاضرة. فبعدما كنّا في البنطس وبعد اهتمامنا بكنائسهم كما ينبغي، بمعونة الله، فاجأنا، في تلك الناحية أيضاً مبعوثون كثيرون من سيبسطية يطلبون استباقَ الهراطقة واتّقاء حملاتهم. ما حدث في هذا الموضوع يجدر به الصمت، والأنّات التي تفوق الوصف، والغمّ الدَّائم، والحزن الذي لا يُزيله الزَّمن. ان البلايا الُخرى يتحمّلها البشر بسهولة انسياقاً والعادة، ولكنَّ بلايانا هنا تزداد مع الوقت باستنباط أُخرى أشدّ إيلاماً.

وهكذا، بعد الصلوات الطّقسيّة، دُعيتُ أنا وسائر الأساقفة لهذه الغاية، وجرى جمع الأصوات الانتخابيّة، فوقع عليّ الاختيار، وعلى غير علمٍ منّي، عَلِقتُ بجناحيّ في الشَّرك؛ ومن ثَمَّ نزاعٌ، وقهرٌ، ودموع، ومهاجماتٌ، ورقابة، وحراسةٍ عسكريّة على رأسها مُستشار الوالي نفسه وهو يُنظّم حملةً علينا، محرّكاً سلطةَ الحاكم، ومتسلحاً بجميع الوسائل لكي يُهيمنَ علينا بجبروته الى حدّ زجّنا في ويلات بابل! لقد ابتعدوا، في ما يتعلق بالإيمان، عن جماعة الزمن القديم ابتعاداً شديداً حتى تمكّنت منهم العِلَّة واستعصت على العلاج فراحوا يناهضون من يعلمون على شفائهم من هذا الداء. والى ذلك فإذ كانوا جُهّالاً، وأكثر من برابرة لغةً، وغلاظ الصوت، ومتوحّشين في طريقة حياتهم، راحوا، في دهائهم، ينفثون الشّر، كالوحوش المفترسة، حتى كان أرخميدس لا شيء بالنسبة إليهم، أو بالحري سيسيفُون وكركيون وسكيرون أو آخرون ممّن نقلت إلينا الّروايات أخبارهم. الباطل أقرب إليهم من الحقيقة، وهم أجرأ على الكذب، في وقاحتهم، مَن هواة الحقيقة في كلامهم. في نظرهم أن يكون الإنسان مُتَّهماً بأقبح الجرائم هو داعي فخارٍ لدى الكثيرين. الكبرياء، والغضب، وفقدان الشعور، وفظاظة ما ذكرته من اعمال، كل ذلك يُعَدّ لديهم كياسة وحسن سيرة.

هذه الأحداثُ التي لم نذكر لك منها إلاّ القليل، والتي تجنّبنا فيها التفصيل والإطالة، قد أوردناها لكي لا تتّهمنا بالكسل والبخل في الكتابة. ولكن الذي يكون في مثل هذه الحال كيف يمكنه ان يتلفّظ باسمه في سهولة؟ ومع ذلك فاذا رغبتَ ان نصبّ اهتمامنا يوماً على ذلك فاسبِقنا أنت، ثم هَبنا من الوقت ما يسمح بالكتابة، إذا لم يكن لوطس مدينتك أعذب لديك من محبّتنا. وإذا كانت العوائق تحول دون ذلك – أعني مهامّ كنيستك – فيكفيك أن تشترك في نضالنا بالصلاة حتى يكشف الله عنا بعض هذه الغُمّة، حتى إذا تيسّر لنا، بعون الله، بعضُ الفراغ قمنا بما يجب علينا وما يجعل في عملنا فائدة للمؤمنين.

الرسالة العشرون

الى الأديب أذلفيوس

من أوانوتا المقدسة – ما لم يكن في كلامي شتيمة وقد لجأتُ الى لغة البلد للدلالة عليها – أُملي لك هذه الرسالة. أقول إني أسأت الى هذا المكان تسميته خالية من كل رونق، وأن روعتهُ لا تدل عليها هذه التَّسمية الغَلاطيّة؛ فلا بُدّ من مشاهدته للوقوف على جماله السّاحر. انا الذي رأى أموراً كثيرة، الذي اطّلع على أشياء كثيرة من خلال الأوصاف التي تركها الأقدمون، أرى أن لا قيمة لما شاهدت ولما ترامى الى مسمعي إذا قورن بجمال هذا المكان. اين منه هَل يكون الشَّهير، وجزُر السُّعداء وسهل سيكيونيون، ونهر فينيون الذي انصبّت عليه الوصاف الشعريّة، والذي في فيضه يتدفقَّ على ضفّتيه غزيراً ويُحصب سهول ثتّالية الشهيرة. أيّ مشهد من هذه المشاهد الجميلة التي ذكرناها لم تحوهِ أوانوتا؟ إذا طلبنا سحر المكان الطبيعيّ وجدنا انه ليس بحاجة الى زخرفة الفنّ؛ وإذا توقّفنا عند الإضافات التي وفّرها الفنّ وجدنا أنّها في روعتها وكثرتها تتغلّب على ما قدّمته الطّبيعة. الحسنات التي مهرت الطّبيعةُ بها هذا المكان وزانت بها جوانبه هي التالية: في الأسفل النهر هَالِس يزين المكان بضفافه الشديدة الانحدار، ويتألّق كشريط من ذهب ممتدٍّ على رداء أرجوانيّ طويل، ينسجه الطَّميُ الأحمر الذي يصبغ مياهه. في الأعلى جبلٌ ضخم يغطّيه الشجر، ويمتدّ حيالَ حَرفٍ جبليّ طويل عامر بشجر السنديان. مشهد حريٌّ بأن يتناولهُ قلم شاعر كهوميرس بالوصف، وعلى مجال أوسع من وصف نيريتوس الإيتاكي الذي قال فيه الشاعر ((انه يُرى من بعيد وهو يُحرّك أغصانه)). وإذا رافق النظرُ المُنحدرَ انبسطت امامه العشاب التي نبتت واتّصلت خضرتها بالحقول المزروعة في سفح الجبل؛ هنالك الكروم تمتدّ على التلال، والسُّهول والسُّيول في أسفل الجبل؛ وكأنها بجملتها رداءٌ أخضر يغطي تلك الناحية كلّها. كان الموسم يضيف جمالاً الى جمال في عرضه للأّنظار مشهد العنب الغزير الذي يملأ الافاق. والعجب من ذلك أنك وانت ترى الفواكه في الجوار غير ناضجة تراها هنا متعةً للنظر والحلق. ثم تتراءى لك المنازل الجميلة من بعيد متألّقة تألُّق نارِ منارةٍ كبيرة؛ الى شمال المدخل بيتُ الصّلاة المهيَّأ

للشُّهداء، وهو، وإن لم يُسقف بعد، يزدانُ بالمهابة والتألق أيضاً. وعلى خطّ مستقيم، امام الطريق، أبنيةٌ أنيقة تتعاقب أقسامها في مرافقها المبتكرة التي تروق النَّفس والنّظر، وأبراجٌ مرتفعة، وباحاتٌ جُهزت لحفلات الطّعام، بين صفوف عريضة وعالية من أشجار الدُّلب كانت تُكلّل المدخل قُدّام الأبوابِ. وحوالي المساكن حدائق الفياكيّن؛ وحاشَ لمفاتن أوانوتا أن تُقارن بهذه! لم يشاهد هوميرس شجرة التّفاح ذات الثّمار البّراقة التي نراها هنا، والتي تستعيد لونَ أزهارها بما لشدّة لون ثَمارها من أثر؛ ولم يُشاهِد الإجّاصة الأشدّ بياضاً من العاج المصقول. وما القولُ عن تنوُّع الدُّرَّاقن وكثرته، هذا المزيج من أنواع متعدّدة؟ وكما أنّ أولئك الذين يمزجون عناصر مختلفة ويتفوّقون على مبتكرات الطّبيعة، فيرسمون من الحيوانات العجيبة ما نصفهُ تيس ونصفهُ الآخر أيّل، وما نِصفُه حصان ونصفهُ الآخر إنسان او ما أشبه ذلك من المُسوخ، كذلك بالنسبة الى الثَّمر فان الطّبيعة بمؤازرة الفنّ قد قامت بالمزج، وفقاً للاسم والذوق، فكان هذا للّوز، وهذا للنّواة، وهذا للُّبّ. والى ذلك فانّ وفرةَ كل نوع تطغى على جمال المنظر؛ ولكنّ تنسيق الأشجار وما يتبعه من مشهد مُنسجم القسَمات – هو في الحقيقة تُحفة رسّام أكثر مما هو عمل بُستانيّ، تزاوجت فيه الطبيعة ورغبات المنسّقين – أظنّ انه من المستحيل التعبير عنه بالألفاظ تعبيراً ملائماً. الممّر تحت العرائش، وظلّ العناقيد الخفيف، والسياج المبتكرة من هنا وهناك، حيثُ تتشابك أغصان الورد وسروع الدّوالي كأسوار تحول دون الدخول من الجوانب، وبركة الماء في خاتمة هذه النُّزهة، والأسماك التي تُربّى فيها... من يستطيع ان يصف ذلك كله بالألفاظ والعبارات؟ في أثناء هذا الوقت كلّه كان مديرو اعمال سيادتك يُسارعون في الاهتمام بنا وعرض ما يقومون به من اعمال في خدمتك، وكأنهم يطلبون في مرضاتنا مرضاتك. ههنا شابّ قام بأمور بهلوانية عجيبة، وعرض علينا مشهداً قلّما يؤلفُ في الطبيعة، فقد انحدر الى قعر البركة وامسك من الأسماك ما راقه منها، وهي لا تهرب منه، وكأنها كلاب صغيرة أليفة تنقاد ليد فتى الفنّ هذا. وقد قادونا بعد ذلك الى أحد المنازل للاستراحة: المدخل يدلُّ على انه منزل، ولكن بعدما اجتزنا المدخل، وجدنا أنفسنا، لا في منزل، بل في رواقٍ عظيم مُتأهِّبٍ لاستقبالنا. كان هذا الرواق العالي يُنيف من عَليائه على حوض ماءٍ عميق، وأساسه المثلّث الزّوايا الذي يقوم عليه غارق في المياه، وكأنه مدخل الى مُتَع الداخل. أمنا دار عالية السقف تحتلّ قمّة المُثلّث، تدخلها الشمس من جميع جهاتها، وتزين جدرانها رسومٌ مختلفة، وقد أخذت بانتباه كل مأخذ الى حدّ أننا كدنا، في هذا المكان، ننسى كل ما سبق لنا ذكراهُ! جذبتنا الدارُ إليها، وإذا الرواق أيضاً فوق الحوض في مشهد فريد الروعةّ كانت الأسماك الجميلة تصعد من العماق الى سطح الماء. وكأنها تريدُ ان تُلاعبنا بلطف، ثم تقفز كالعصافير في الفضاء. كانت تظهر نصفَ ظهور وتطفرُ في الهواء، ثم تعود الى الغوص في الأعماق. جماعة أُخرى من الأسماك كانت تظهر متلاحقة في صفوف منتظمة، وتقدّم للغريب مشهداً عجيباً؛ وفي جانب آخر رتلٌ من الأسماك تتهافت، جماعاتٍ جماعاتٍ، على قطعة خبزٍ، متزاحمات ومتنافسات، تثب الواحدة منها، وتتوارى أُخرى في الماء. حتى هذا المشهد إنسانته العناقيد التي قُدّمت لنا في سلالٍ وقُففٍ، الى جانب الفواكه الأخرى المتنوّعة والرّائعة، ونظام الغذاء، والأصناف المختلفة، والتوابل والحَلاوى، والأخناب الودية، والكؤوس.

بعدما نِلنا من الغذاء شبعنا، وقد كاد النُّعاس يقوى عليّ، استقدمتُ الكاتب وأمليتُ عليه هذه الرسالة الى بلاغتك وكأنني في حُلم؛ ولكن لا بمداد وقرطاسٍ بل بصوتي ولساني أودّ لو أتكم من وصف كل روائعك وصفاً كاملاً، لأجلك ولأجل كل من يُحبك.

الرسالة الحادية والعشرون

الى افلافيوس

هنالك طريقة لقنص الحمام هي التالية: عندما يقبض الذين يتعاطون هذه المهنة حمامة، يعملون على تدجينها، وترويضها على مشاركتهم في الطعام، ثم يطلون ريشها بالطيب ويطلقونها لكي تختلط برفوف الحمام، فتدجّنها، بعَرف طيبها، لمن أطلقوها، لأنها تتبع صاحبة العَرف الطيّب، وتقيم معها.

ماذا أريد بهذه المقدّمة؟ أريد أني بعد ما طليتُ جناحي نفس باسيليوس، الذي كان اسمهُ قبلاً ذيوجينس، بطيبٍ إلهيّ، أرسلتهُ الى سيادتك لكي تطير معه وترافقه الى العشّ الذي أقامه بالقرب منّ؛ وإذا قُيّض لي أن أتمكّن، وأنا على قيد الحياة، من أن أرى سيادتك منتقلاً الى الحياة المُثلى، كنتُ من أعظم الشاكرين لله نعمته.

الرسالة الثانية والعشرون

الى الأساقفة

ثلاثة أيّامٍ فقط لبث النبيُّ في جوف الوحش البحريّ، ومع ذلك فقد خارت عزيمة يونان! وأنا هنا منذ زمنٍ طويل ما بين النّينويّين الكفّرة، سجين في احشاء الوحش، ولم يُتح لي بعد أن أُقاءَ من هذا البُلعوم الواسع. صلوا إذن واسألوا الربّ أن تحلّ نعمتُهُ فيصدر الأمرُ الذي يُطلقني من هذا السّجن الضّيق فأعود الى خيمتي وأستريح في ظلّها.

الرسالة الثالثة والعشرون

(بلا عنوان)

اني اختصر في الكلام لكي أُجنّبك التّعب. تذكّر واجباتك وكل شيء ماضٍ في الطريق الصحيحة مع فيذيمسُ. لا بُد من السّرعة في الشكران. الى هنا يبلغ تحريضنا.

الرسالة الر لبعة والعشرون

الى هيراكليانس المارق

كلمةُ الإيمانِ الصّحيح، عند من يتقبَّلون كتُبَ الوحي الإلهيّ بروحٍ مستقيم، تستمدُّ قُوتها من بساطتها، وهي ليست بحاجة الى حذقٍ أو الى أيّ مهارةٍ للتعبير عن حقيقتها، كما أنها تستمدّ وضوحها من التقليد الأوّل الذي بلغنا من كلام الربّ عندما نقل إلينا سرّ الخلاص بغسلِ التّجديد، وقد قال: ((اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعنّدوهم باسم الآب والابن والروح القدس، وعلّموهم أن يحفظوا جميع ما اوصيتكم به)). عندما ميّز ما بين العُنصرين القائمين في طريقة الكيان المسيحيّ – العنصر الأخلاقي، ودقّة العقائد – أقام على أساسٍ متين العقيدة الخلاصيّة في تقليد المعموديّة، وأمر أن تسير حياتنا على حفظ وصاياه. أما القسم المتعلّق بالوصايا، وهو أقلّ أذىً للنفس، فلم يُهاجمهُ إبليس؛ ولكنه توجّه بكل شرّه الى الناحية الهمّ لكي يضلّل نفوس الكثيرين مظهراً لهم أن لا فائدة في العمل بالوصايا بغياب الإيمان، وهكذا تكون سيرتهم الصالحة غير مفيدة لانجرافهم في الضلال.

لهذا ننصح من يهمّهم أمرُ خلاصهم أن لا يبتعدوا عن بساطة كلمات الإيمان الأولى، بل ان يتقبّلوا في نفسهم الآب والابن والروح القُدس، لا أقنوماً واحداً بثلاثة أسماء. لا يمكن القول بأنّ الآب أب من ذاته، لأنّ الابن لا يمكنه ان يتّخذ له التسمية التي للآب، ولا أنّ الروح يمكنه ان يتخذّ حقيقة هذا أو ذاك؛ وهكذا فلكلّ واحد من الأقانيم الثلاثة اسمه الخاص وان كان الجوهر واحداً. عندما يكون الكلام عن الآب يعني الكلام عن علّة كل شيء؛ وعندما نعرف الابن نعرف القدرة التي تتجلّى انطلاقاً من العلّة الأولى التي هي في أصل وجود الكون؛ وعندما نعرف الروح القّدس نعرف القدرة التي تستطيع أن تتمّم ما صدر عن الآب بالابن في الخليقة.

تمتاز الأقانيم الواحد عن الآخر بما ذكرناه، أقنوم الآب، وأقنوم الابن، وأقنوم الروح القدس؛ أما الجوهر في الثالوث – وهو لا يمكن التعبير عنه باللفظ ولا تصّوره بالعقل – فهو واحد: وذلك ما لا يمكن إدراكه، ولا تصوُّره، ولا الإحاطة به؛ انه واحدٌ لكلّ من الأقانيم في الثالوث الذي نؤمن به. من يُسأل عما هو الآب جوهرياً يعترف بصدق أن الأمر فوق المعرفة؛ ومن يسأل السؤال نفسه في شأن الابن الوحيد يُقرّ بأنه من المستحيل ان تحيط الألفاظ بجوهره، لأن ((مولده من يصفه))؟ كذلك في شأن الروح القدّس، فان كلام الربّ يبيّن استحالة معرفته، وذلك عندما قال: ((تسمع صوته ولكنك لا تدري من أين يأتي ولا الى أين يذهب)).

فإذ كنّا لا نجد أيّ فرق لا مفهوميّة الأقانيم الثلاثة – إذ لم يكن الواحد أقلّ مفهوميّة، والثاني أكثر مفهوميّة، ولكنّ قدر الا مفهوميّة واحد في الثالوث – نقول من ثمَّ، انسياقاً مع تصورُّ الا إدراكية والا مفهوميّة، انه لا يوجد في الثالوث أيّ فرق جوهريّ ما عدا ما فيه من رتبة وأقانيم؛ أمّا الرُّتبة فقد نقلها إلينا الإنجيل: بحسب هذه الرّتبة ينتقل الأيمان، الذي يبدأ مع الآب، الى الابن، وينتهي في الروح القُدس. وفي ما يتعلّق بالفرق بين الأقانيم، الذي يظهر في الرُّتبة نفسها، فهو لا يسبّب أيّ تشويش عند من يعرفون ادرك معنى الألفاظ، إذ ان التسمية ((آب)) تدلّ على تصوُّر خاص، وكذلك التّسمية ((ابن))، والتسمية ((روح القدس))، بدون أي اختلاط أو تشوّش في الأداء. انّنا نُعمَّد، كما نُقل الأمرُ إلينا، باسم الآب والابن والروح القدس؛ وإنّنا نؤمن كما نعتمد – فمن الملائم ان يكون هنالك توافق بين الإيمان والمذهب؛ فنحن نمجّد كما نؤمن – إذ ليس من الطبيعيّ ان يقاوم التمجيد الأيمان، فما نؤمن به هو ما نمجّده أيضاً.

وهكذا بما ان الإيمان هو بالآب والابن والروح القدُس، وان الإيمان والتمجيد والمعمودية تتماسك، فلا تمييز في التمجيد بين الآب والابن والروح القدس. هذا التمجيد الذي نرفعه الى طبيعة الأقانيم ليس انطلاقاً ممّا في وسعنا يكون تمجيدنا للطبيعة الإلهية، بل باعترافنا بصفاتها يكون تمجيدنا لها. وإذ كان عدم الفساد، والأزليّة، وغير قابليّة الموت، والصلاح، والقدرة، والتقديس، والحكمة، وكل معاني العظمة والرفعة هي من خواصّ كلٍّ من الأقانيم التي نؤمن بها في الثالوث الأقدس، فعندما نجعل فيهم هذه الصفات نمجّدهم بها تمجيداً. وبما ان ما للآب يملكه الابن، وان كل صلاح في الابن يوجد في الروح القدس، فإننا لا نجد في الثالوث الأقدس أيّ فرق جوهري بالنسبة الى سموّ المجد. وإذا عمدنا الى التشبيه المادّيّ قلنا: ليس الواحد أعلى والآخر أدنى – ما هو غير مرئي وغير ذي صورة هو غير قابل القياس -، وليس في الثالوث الأقدس تغايرٌ إذا قابلنا ما بين القدرة والصلاح، كما لو كان بالإمكان القول بأن في ما بين هذه الصفات فرقاً بحسب الأكثر والقلّ. من يَقُل بأن هذا الشيء أشدّ من ذاك يعترف ضمناً ان الأدنى في الشدّة هو أضعف أو عدم القدرة، سواء كان في الأكثر أو الأقل، في ما يتعلّق بالابن الوحيد والروح القدس. ان كلمة الحقيقة تصرّح لنا أن الابن والروح القدس كاملان في القدرة، والصلاح، وعدم الفساد، وشتّى معاني السّموّ. فإذا اعتُرف لكل أقنومٍ في الثالوث بكمال كل صلاح، كان من غير المعقول القول بأن الشيْ الواحد كامل، ثم القول بأنه غير كامل بالمقارنة؛ إذ ان القول بالدُّونية بحسب عظمة القدرة أو الصلاح ليس سوى إثبات النقص في هذا المجال. فإذا كان الابن كاملاً، وكان الروح القدس كذلك كاملاً، فالعقل لا يتصوّر كاملاً أقلّ كمالاً أو أكثر كمالاً.

اننا عن طريق الأفعال ندرك طابع المجد غير قابل الانقسام. الآب يُحيي؛ قال الرب: ((الروح هو الذي يحيي)). فلا بُدَّ إذن من تصوُّر قدرة تنطلق من الآب، وتنمو بالابن، وتكتمل في الروح القدس. لقد أدركنا ان كل شيء يأتي من

الله، وان كل شيء يثبت بالابن الوحيد وفيه، وان قدرة الروح القدس تنتشر في جميع الأشياء ((عاملةً كل شيء في الجميع)) على حدّ قول الرسول.

الرسالة الخامسة والعشرون

الى أمفيلوخيوس

إنّي الآن على اقتناع، بنعمة الله، بأن مشروع ((المرتيريوم)) على طريق التّحقيق. عساك تريده! ما صُمِّم سيتحقَّق بقدرة الله الذي يستطيع ان يحوّل الكلمة التي يقولها الى عمل؛ والرسول يقول: ((ان الذي ابتدأ العمل الصالح سوف يواصل تتميمه))، فاني أدعوك ان تقتدي في ذلك ببولس العظيم، وتساعدنا على تحقيق آمالنا، فتُرسل لنا عمّالاً كافين لهذا العمل. من الممكن، انطلاقاً من التقدير، أن نُطلع سيادتك على مساحة البناء كله كما يتبدّى لنا، ومن أجل ذلك سأحاول وصفه لك قدر المستطاع.

المصلَّى على شكل صليب ينتهي في جهاته المختلفة بأربع قاعات، ولكن وصلات هذه القاعات غير متلاصقة، على غير ما نجده في سائر ما هو على شكل صليب. في داخل الصليب دائرة بثماني زوايا – دعوتُ هذا الشكل مُثمَّن الزّوايا لأنّه مدوّر – بحيث انّ جهات المثمّن الزوايا الأربع، المتقابلة قُطرياً، تصلُ بحناياها الدّائرة الوسطى والقاعات القائمة على جهات أربع، جهات المثَّمن الأربع الأُخرى الواقعة بين القاعات المستطيلة الزّوايا لن تمتدّ لتكونِّنَ قاعات، ولكن سيضاف إليها قباً صغيراً بشكلٍ صدَفةٍ ينتهي أعلاه بقوس. هكذا يكون في اجملة ثمانية اقواس تَصِلُ القاعات المستطيلة الزوايا والأقباء الصغيرة بالوسط. في داخل أعمدة الزّوايا أعمدة بالعدد نفسه. للزّينة والتدعيم تحمل فوقها أقواساً مبنيّةً على نسق الأقواس الخارجيّة ومستندة إليها. فوق هذه الأقواس الثمانية سيرتفع البناء المثمن الزوايا أربعَ أذرع بسبب حجم النوافذ التي تعلوها؛ وما سيعلو ذلك كله سيكون بشكل مخروطيّ إذ يتحوّل شكل السقف، بفعل ضغط القُبَّة، من فتحةٍ عريضة الى قرنةٍ مروَّسة. عرض كلّ قاعة من القاعات المستطيلة الزّوايا ثماني أذرع، وطولها أثنتا عشرة ذراعاً، أمّا العلّو فسيكون ما تقتضيه النسبة مع العرض. الحجم نفسه سيكون للأقسام التي على شكل نصف دائرة. ستكون المسافة بين الأعمدة ثماني أذرع؛ أمّا العمق فخطٌّ بركار يُثبت رأسه في نصف الجانب ويُمرَّر في الأطراف؛ وأمّا العلّو فسيقرره العرض ويكون مناسباً له؛ وأمّا سمكُ الجدران، خارج المسافات الداخلية المقيسة، فسيكون ثلاث أقدام؛ وهي ستطوِّقُ البناءَ كلّه.

بهذا العرض الدقيق قدّمتُ لصلاحك مادّة ترفيهٍ لنفسك كما هدفتُ الى أن تتمكّن من تقدير ما يكون عدد القدام (المربّعة) انطلاقاً من سْمك الجدران والأبعاد الداخليّة. وإذ كان لك من الذَّكاء النّافذ في كل شيء، والناضج، بمعونة الله، في كل ما تريد، يسهل عليك، بعد هذا التعداد الدقيق، أن تقدّر الحجم العام الذي سيبلغه هذا كلُّه،

فترسل لنا من البنَّائين عدداً لا يزيد ولا ينقص. أرجو بنوع خاص أن يكون بين هؤلاء من يُحسنون بناء قبّة بدون هيكل. علمتُ أن بناءَها على هذه الطريقة يجعلها أشدّ متانةً ممّا لو كانت على هيكل. النقص في المواد الخشبية أوحى إلينا بأن نُغطّي البناءَ كلّه بسقفٍ من حجر، إذ ان المكان يخلو من الخشب الصالح لهيكل البناء. اعلم، يا صديقي المُخلص، أنّ بعض النحّاتين هنا، وعددهم ثلاثون، وعدوني بأن يعقدوا معي عقد عمل نحت مقابلَ قطعة ذهب في اليوم لكلٍّ منهم بالإضافة الى الطّعام. ولكنّ هذه الطريقة بنحت الحجارة ليست في إمكاننا، ومادّة البناء ستكون الطّوب والحجارة العاديّة فلا تقتضي الوقت الطويل لجمعها وإحكام تنسيقها. أنا أعلم أن العمّال عندكم أشدّ مهارةً وأقلّ كلفةً من الذين عندنا. يقوم عمل نحّاتي الحجارة ليس على عمل الأعمدة الثمانية التي يجب صقلها وتزينها وحسبُ، بل على جعل أُسُس الأعمدة أيضاً على شكل مذبح، وتيجان الأعمدة منحوتة على الأسلوب الفنّي الكورنثي. مدخل من الرّخام المشغول على نسق لائق، فوقه بّوابة مُزيَّنة بأشكال فنيّة معهودة تسير مع نقوش السّطح المعمّد – لا جرَم أننا سنقدّم نحن الموادّ، وعلى الفنّ ان يشكّل المادّة – أخيراً أعمدة الرّواق الرّواق، التي ليست أقلّ من أربعين، يعالجها نحّاتو الحجارة.

إذا أدّى العرضُ الذي وضعتهُ غرضهُ من التدقيق والتشخيص، كان بإمكان قداستك، وقد وقفت على ما نحنُ بحاجة إليه، ان تُطمئننا بالنسبة الى العمّال. إذّ كان أحد العمّال يريد ان يتعاقد معنا، فليحدَّد له، إذا أمكن ذلك، مادّة عمل كل نهار وكميّتها، حتى إذا توانى في العمل وتهامل فيه، لا يستطيع الادّعاء بأنه عمل كذا أيّاماً، ويطالب بأجر هذه الأيّام. أعلم أننا نبدو حقيرين في نظر الكثيرين عندما ندقّق في موضوع العقود؛ ولكن أرجو المعذرة، إذ ان ((مامّون)) (المال)، وقد أكثرنا من تشهيره، قد ابتعد عنّا، ابتعاداً شديداً، منتقماً على ما أظنّ، من شدّة تهكُّمنا به، وانفصل عنا وكان بيننا وبينه هوّة عظيمة، أعني الفقر، بحيث انه لا يستطيع الاقتراب منّا، وأننا لا تستطيع اجتياز الهّوة والاقتراب منه. لهذا السبب أعلّق أهميّة كبيرة على اعتدال العمّال، فنتمكّن بذلك من تحقيق المشروع الذي ننوي القيام به من غير ان يحول الفقر دون تحقيقه – هذا الشر الذي يمكن الثناء عليه وتمنّيهِ. في هذه الأقوال بعض المُزاح. وفي ما يتعلّق بك، يا رجل الله، طمئن الجميع في ما هو من شأن كرمنا وتسديدنا للأجور الكاملة، وذلك عندما تُعقد الاتّفاقات مع العمّال على أساس ممكن وشرعيّ. لن نتلكّأ عن بذل كل شيء لأن الله، بفضل دعائك، سيفتح لنا نحن أيضاً يد بركته.

الرسالة السادسة والعشرون

من السفسطائي ستاجيريوس الى الأسقف غريغوريوس

الأسقفُ كائن صعبٌ صيدُهُ بالشبكة، وأنت يقدر ما تتفّوق على غيرك في البلاغة، تبعث فيّ خشيةَ وقوفك بحزم في وجه طلبي. ولكن، أيها الصّديق الرائع، اجعل الى جانبٍ حذقَك في النقض، وبرهن عن سخاء، وإذ كنّا مفتقرين الى روافدَ لسقف المنزل – لو كان المتكلم غيري من السفسطائيين لتكّلم عن سُمُك أو عن أوتاد، مؤثراً الألفاظ الصغيرة على الخضوع للضرورة – هب لنا مبلغ عدّة مئات: ان ذلك في إمكانك ولو اضُطررت الى اقتطاع ذلك من الجنّة، وإنّي، إذا لم تُعطني، سأقضي الشتاء في الهواء الطَّلق. برهن، أيها الصديق، عن نُبل في النفس واكتُب رسالة الى كاهن أوزيانا تأمره فيها بأن يُنيلنا ما نطلب.

الرسالة السابعة والعشرون

جواب القديس غريغوريوس للسفسطائي

إذا قيل ان الاستفادة صيدٌ بالشبكة، وإذا كان هذا هو معنى التعبير الذي واجهنا به حذقُك السُّفسطائي بعدما استخرجه من تأمُّلات أفلاطون الصّعبة المنال، فتفحص، أيها الصديق الرائع، من هو الأصعب اصطياداً بالشبكة، نحن الذين تهزّنا رسالة، أو رهط السُّفسطائيّن الذين مهروا في فنّ الكلام والإفادة من الكلام. مَم مِن الأساقفة فرض ضريبةً على خُطبه؟ من جعل تلاميذه مصادر دّخل؟ السفسطائيون يفخرون بذلك، عارضين حكمتهم للبيع كما يعرض الحلوانيّون حَلواهم المعسَّلة! إنك ترى كل ما أنت قادر عليه بقّوة أقوالك الموسيقيّة الخارقة، أنت الذي استطعتَ أن تثيرني أنا الشيخ فأثب وأثور، والذي تستطيع ان تبعث على الرقص من لا يعرفون الرقص.

من جهتي أمرتُ أن يُؤمَّن لك، أنت الذي تتباهى في خُطبك بالحروب الماديَّة، روافِدُ بعدد الجنود الذين حاربوا في التَّرموبيل، وكلها بالطول المناسب، ((ويمتدّ ظلُّها الى البعيد)) على حدّ قول هوميروسك، وقد وعدني الكاهن القدّيس ان يُسلِّمَها كاملةً سليمة. لم أقل عشرة آلاف ولا عشرين ألفاً، ولكن بقدر إمكانات المسؤول، وبقدر ما يمكن المُستِلم أن يدفع.

الرسالة الثامنة والعشرون

إنّ الذين يتذوَّقون الورد – على ما هو مألوف عند من يهوى الجمال – لا يتنكرون لشوكه الذي تستمدُّ منه الزهرةُ نموّها؛ وقد سمعتُ أحداً يقول – سواء كان كلامه مُزاحاً أو جدّياً – في هذا الموضوع: ان الطّبيعة قد جمعت ما بين الزهرة والشوك ليكون هذا الشوك الحادّ مهمازاً حبياً يحفز هواة الزهرة الذين يريدون قطفها على ازدياد الرغبة في طلبها.

ولكن ماذا تعنيه هذه الوردة التي حشرتُها في رسالتي؟ لست بحاجة الى معرفة ذلك إذا كنت تتذكر رسالتك التي كانت تحتوي زهرة كلامك ناشرةً ربيع بلاغتك كلَّه، والتي تنتصب أشواكها علينا ترافقها الملامات والاتّهامات. ومع ذلك فأنّ شوك أقوالك بالنسبة إليّ هو مدعاةُ متعة وبهجة لأَنها تزيد اضطرام رغبتي في صداقتك. فأكتُب، واكتُب دائماً كما يروق لك. سواء كان ذلك لتكريمي – كما اعتدتَ أن تفعل – أو كان لوخزي قليلاً بَملاماتك. يهمّنا ان لا ندع لك مجالاً في ما بعد للومنا كما لم نفسح لك بالمجال الآن، إذ اننا قمنا، قبل سفرنا الى المشرق، بكل ما يروقك وكل ما يقتضيه العدل. على ذلك يشهد أخونا المشترك أفغريوس الكلّي الوقار - الذي يحمل إليك هذه الرسالة والذي أطلعه جماعتك على كل شيء لأنهم كانوا حاضرين – ويشهد على تقديرنا للعدل، وشكر جميع الذين يديرون مصالحك على ما جرى.

الرسالة التاسعة والعشرون

الى شقيقه بطرس أسقف سيبسطية

بكثير من الجهد وجدتُ بعضَ الفراغ للاهتمام بجسمي بعد عودتي من أرمينية، وتجميع المُدونات التي خططتُها، بتحريض من عقلك الواعي، وأمليتها متناولاً فيها أفنوميوس. لم أنقض جُزأي الكتاب؛ لم يُتح لي من الوقت ما يُساعدني على ذلك لأن الذي أعارني كتاب الهرطقة عاد فطلبه حالاً بكل وقاحة، ولم يمنحني الوقت الكافي لنسخه والتمعُّن فيه. لم أخصّه إلاّ بسبعة عشر يوماً، وهي غير كافية للاطلاع على مضمون الجزأين. وإذ كان الكثيرون ممّن يغارون على الحقيقة، وممن لا أدرى كيف بلغهم أنّنا آخذون في دحض آراء الكتاب، يلحّون علينا بالردّ في غير إبطاء، رأيتُ أنه من الأفضل، قبل كل شيء، أن ألجأ الى مشورّة عقلك في الموضوع: هل يجب أن أثق بما أسمعُه من أكثر الناس أم يجب الاقتصار على موقف آخر؟ ما يوقعني في الحيرة هو ما يلي: وصلني كتاب أفنوميوس في مدّة وفاة القديس باسيليوس. ولمّا يزل قلبي مضطرماً ألماً وحزناً على ما ألمَّ بالكنائس من مصاب عامّ. أضف الى ذلك أن أفنوميوس لم يكتفِ بكتابة ما بدا له انه جوهر عقيدته، ولكنه تطرّق الى الشَّتائم التي أمطرها على أبينا.

لهذا، وقد آلمني ما قاله بوقاحة، وقفتُ من المؤلف موقف استياء وحدّة. كما أن أكثر الناس يعرفوننا على غير هذا الوجه، لكوننا قادرين على تحمُّل من يوجّهون إلينا وقاحاتهم، وذلك بلزومنا جانب الاعتدال في التعامل، وذلك تمشيا وتعليمّ هذا القدّيس، وإني أخشى، على أثر ما هاجمنا به خصمنا، أن نظهر بقرّائنا بمظهر الحديثي العهد بالأمور، نغتاظ لشتائم الوقحين. والذي من شأنه ان يعذرَ موقفنا هو اننا لا نغتاظ لأمر يتعلّق بنا، ولكن لأقوال قبيحة وُجّهت الى أبينا. قد يكون الاعتدال في مثل هذه الحال غير قابل العُذر لا الغيظ.

إذا بدت مقدّمة كتابي خارجةً عن موضوع الصِّراع نوعاً ما، فإني أظنّ أنّ الناظر الى المور بعين الانصاف يتقبّل ذلك ولا يُنكره. لم يكن بُدٌّ من الدّفاع عن سُمعة باسيليوس الكبير التي حاولت تجاديف العدّو ان ننال منها، كما لم يكن بُدٌّ من نشر الصراع في شأنه هنا وهناك من الكتاب. وعلى كل حال فالناظر في المور كليّاً يرى أن هذه الأقسام تدخل ضمن النقاش. وإذ كان لكتاب العدّو هدفان: التجريح بنا والتنكّر للعقيدة، كان لا بُدّ لردّنا من نقص الأمرين. وسعياً وراء الوضوح وعدم المسّ بترابط النقاش اضطُررنا الى جعل الكتاب قسمين: اهتممنا أولاً للدفاع عن أنفسنا وردّ الاتّهامات الموجّهة إلينا، ثم انتقلنا – على قدر ما استطعنا - الى ما هاجم به العقيدة. لا يتوقف البحث عند الردّ على الآراء الهرطوقيّة، ولكنه يتضمن الى ذلك عرضاً لعقائدنا. رأينا انه من المُخزي، في حين لا يتستّر الأعداء في حماقاتهم، أن لا نتكلم عن الحقيقة بجرأة. فليحفظك الربّ للكنيسة صحيح النفس والجسد.

الرسالة الثلاثون

من بطرس أسقف سيبسطية الى شقيقه غريغوريوس النيصي

من بطرس الى شقيقه غريغوريوس الكليّ التّقوى سلامٌ في الربّ. بعدما قرأتُ رسالة قداستك، ولمستُ في دحضك للهرطقة غيرَتَك على الحقيقة وعلى أبينا القدّيس (باسيليوس) رأيتُ أن هذا العمل ليس من صُنع مقدرتك، بل من صُنع من قرر أن يُنادي بالحقيقة في ما بين عبيده.

وكما أقول بأنه من الحقّ أن ننسب الدّفاع عن الحقيقة الى روح الحق نفسه، كذلك أرى انه من الواجب ان نردّ التهجُّم على الإيمان القويم لا الى أفنوميوس بل الى أبي الذب نفسه، يبدو لي أيضاً أن من كان ((منذ البدء قتّال الناس)) وتكلّم بلسان هذا قد شحَذ سيفّهُ وأصلَتهُ على نفسه؛ فلو لم يتجرأ هذا على الحقيقة الى هذا على الحقيقة الى هذا الحدّ لما حملك أحدٌ على التحرّك للدفاع عن عقائد الإيمان. والذي ((يأخذ الحكماء في مكرهم)) أعطاهم، لكشف زيف مذهبهم وضعته، أن يتطاولوا على الحقيقة ويصخبوا عبثاً بهذه الكتابة الزّائفة.

هكذا، بما أنّ ((الذي ابتدأ العمل الصالح سوف يواصل تتميمه)) لا تَعيَ في خدمة قدرة الرّوح، ولا تدع نشاط من يحاربون مجد المسيح نصفَ سليم، بل اقتد بأبينا الشريف الذي، على مثال فنحاس الغيور، قضى بضربة] واحدةٍ من ردّة على التلميذ والمعلّم. فأعمِل أنت بشدّةِ يدِ بحثِك سيفَ الروح في كتابي الهرطقة، حتى لا تُخيف الحيّةُ المسحوقةُ الرَّأس بُسطاءَ القلوب بتلويح اذنيها. لقد دّمرَّ القسم الأوّل من الكتاب، فإذا لم يُمحَّص القسم الأخير يذهب الكثيرون الى أن فيه بعض الحقيقة.

أمَّا السّورةُ التي تظهر في بحثك فهي تُلي قوى النفس ما يُوليه الملحُ للمذاق. وكما أن ((الخبز التَّفِه بغير ملح لا يؤكل))، على حدّ قول أيّوب، كذلك البحث الخالي من أقسى قوارص كلام الله فإنه يكون بلا فائدة ولا قوة برهان. فإلى الأمام اذن انت الذي أصبحت المثال الصالح للأجيال القادمة، وبيّن كيف يجب ان يسلك أصحاب النفوس الشريفة في الدفاع عن آبائهم الأفاضل. لو كنتَ أظهرتَ مثلَ هذه الغيرة في حياة القدّيس، وهاجمتَ من تواقحوا وتهجّموا على شهرته لما كنت نجوتَ من تهمة التزلُّف والمُمالقة. ولكن الآن بنُبل نفسك وصدقها، وبعرفانك جميل من قادك الى النّور بولادةٍ تتجّلى غيرتُك على الفقيد وسخطك على أعدائه. كُن مُعافىً.